من أحاديث القرى

حكايات من ذاكرة الأرض

عبدالله بن محمد الناصر

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الناصر، عبدالله محمد

من أحاديث القرى./ عبدالله محمد الناصر. - الرياض، ١٤٢٨هـ

١١٥ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٣-١٥٣-٥٤-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣، ٠١٩٥٣١ ١٤٢٨/ ٣٠

رقم الإيداع: ١٤٢٨/ ٣٠

ردمك: ٣-١٥٣-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى زوجتي وأولادي

رفقاء غربة، ورفقاء حرف

المقدمة

هذه الحكايات مزيج من الواقع وشبه الواقع، مزيج من القص، والتقاط الصور.. تلك الصور الإنسانية التي ترسمها ريشة الزمن في وقت من الأوقات، فلا تعود لرسمها مرة أخرى، وقد رُسِمَتْ على لوحات جغرافية مكانية ضمن ظروف اجتماعية، وثقافية، لا يمكن لها أن تعود، أو تتكرر، ليس بسبب تغير الظروف والمناخات الاجتماعية، والظروف الثقافية، فحسب، بل حتى الجغرافية. فالأرض لم تعد هي الأرض، أعني بالأرض: المكان.. القرية، والمزرعة، والشارع. كل هذه الأشياء تغيرت، وتبدلت، شكلاً وبناءً، وجوهراً..

كانت القرية عالماً له استقلاليته، وله شخصيته، وله فرادته.. فرادته الجغرافية ذات الحدود المتعارف عليها..!! وفرادته الاجتماعية من عادات، وأساليب سلوك، وطريقة عيش... وفرادته الثقافية بل واللغوية، ولا أعني باللغوية اختلاف اللغة، وانما أعني المصطلحات اللغوية واللهجية.

هناك قرى لا يبعد بعضها عن بعض مسافة بعيدة إلى درجة أنك وأنت في هذه القرية ترى تلك القرية الأخرى، ومع هذا

فقـد يظهـر تبـاين في اللهـجـة، وفي بعض المصطلحـات، ووسـائل التعبير..

اليـوم لم يعـد هذا الاخـتـلاف مـوجـوداً.. بل لم تعـد القـرية موجودة برائحتها وفرادتها، وسحنات أهلها، وعاداتهم، وطبائعهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من نظرة للحياة، وما تنطوي عليه ثقافتهم من حكايات، وقصص، وأحاديث، بل بما يتميـز به بعض أهلها من شـاعـرية، أو من شـخـصـيـة سـاخـرة، أو مـرحـة، تظل عـلامـة من عـلامات القرية... القرية ماتت بسبب غرقها في بحر المدينة، أو بالأصح في بحر المدنيّة، لقد تماثل كل شيء، وتشابه كل شيء، فلم يعد هناك قرى، وانما هناك منشآت متشابهة، متماثلة في كل شيء، في شكلها وسلوكها الاجتماعي، وعادات أهلها وثقافتهم، لقد أصبحت القرية - إن جاز التعبير - جزءاً من السلوك العام، والحركة العامة، والنشاط، وإيقاع الحياة العامة، والثقافة العامة..

وهذا ما جعلني أحاول أن أسجل، وأعيد صياغة بعض تلك الأحداث من خلال ذاكرة الطفولة، وأن أكون أميناً في رسم الحالة النفسية، والثقافية، ليس من خلال الحكاية.. فالحكاية أو الحادثة أو الأحاديث قد يدخل فيها الخيال، والزيادة والنقص، ولكنني حاولت أن أكون أميناً في أن أكتب باللون نفسه، وبالرائحة نفسها. وربما ساعدني في نقل تلك الصور معايشتي لأكثر من جيل، لأني

أدركت في طفولتي شيوخاً عاشوا الحياة التقليدية الأولى بكل أنماطها، وطرق عيشها.. فقد استعملوا الجمل والحمار في ركوبهم، وسقوا مزارعهم بالسانية، واستعملوا السيف والعصا في صراعهم.. ثم تعاطوا مع الآلة الحديثة في جزء من حياتهم.. فركبوا السيارة، واستعملوا (ماكنة) الري، واستمعوا إلى (الراديو)، وشاهدوا (التلفزيون).. وهؤلاء هم الذين انفعلوا بالحياتين انفعالاً شديداً، وتعاملوا معهما تعاملاً له طعمه وله لونه، وله ثقافته، وإيقاعه الإنساني، من حيث إنه جسد تلك الخلخلة التي سببتها معطيات الحضارة الصناعية، في جيل شاهد صدمات عنيفة، بين تاريخ سحيق ثابت يكاد يكون ثباته ناموسياً، وتاريخ جديد سريع يلغي وسيلة الماضي بكل تراثه التاريخي، ويلغي آلته في ظرف وجيز ومحدود..!!

وعشت جيلاً ثانياً؛ وهو الجيل الذي أدرك الحياتين، ولم يدرك حدة ولا شدة الصدمة.. فركب الحمار، والجمل، والسيارة في آن واحد، ودخل المدرسة الحديثة، وشاهد السينما، وربما سافر خارج الوطن، ولا يجد نفسه في تناقض مع معطيات مرحلته.. لقد كان جيلاً متميزاً، وعلامة واضحة بالرغم من قصر مدته. هذا الجيل أخذ من الثقافة الحديثة، وأخذ من العادات السائدة، وربما تمرد عليها أكثر من غيره، فنرى أبناءه يتسمون بالاندفاع وراء التبدل، والتغير، بشكل سريع، وكأنهم يريدون أن يدفنوا بقية الماضي الذي

ورثوه عن آبائهم، ولا يزالون يرون آثاره؛ لذا رأينا غالبيتهم من الذين يتمردون على القيم والأعراف السائدة، يدخنون، وربما يشربون، ورأيناهم أكثر اندفاعاً إلى الثورية، والبحث عن الرمز العربي، بل والثقافة العربية المتحدة بما في ذلك وحدة الغناء، مثلاً: كالسماع الى أم كلثوم وعبدالوهاب، وفريد الأطرش.. ليقولوا إنهم جيل نهضوي، يواكب مرحلة الأمة ليس في همومها بل وفي سلوكها الثقافي والسياسي، ثم انحسر هذا الجيل ليظهر جيل عام متشابه، بدأت معه خصائص الفرادة تذوب وتتلاشى، ومع تقدم الزمن والأيام أصبحت هذه الفرادة أو هذا التميز الذي من خلاله تستطيع أن تقف على حالة جماعة في بلدة، أو قرية، لها طابعها الخاص، أمراً غير ممكن وغير موجود..

من هنا جاء اهتمامي ورصيدي للكتابة عن القرية، أو عن البلدة، التي تشبه القرية، ولست أزعم هنا أنني أعطي صورة عنها بكل دقة وشمولية.. لا.. فهذا أمر مستحيل. ثم هذا عمل أصحاب الدراسات الانثروبولوجية.. وهذا أيضاً يكاد يكون مستحيلاً.. فتاريخ القرى، أو حكايات القرى، لم تكن مسجلة تسجيلاً وثائقياً، أو في شريط سينمائي يمكن الرجوع أو العودة إليه عند الاحتياج.

وكل الذي استطعت أن أفعله هو رصد بعض تلك الحكايات رصدا نفسياً، وثقافياً، وربما تاريخياً، من خلال ما احتفظت به الذاكرة من تلك الذكريات، والرؤى، والمشاهدات التي خطرت،

وعبرت، وظلت عالقة تلقي بظلالها على مشاعري، وخيالي، بل ولغتي، ما بين فترة وأخرى.. أسجلها وأضعها أمام جيل جديد ليس له عهد بتلك، بل هو منقطع منبت الصلة بها على الرغم من أنها ليست منه ببعيد.. قد يرى فيها هذا الجيل، بل قد يرى فيها المرء بصفة عامة تسلية، وتجربة حرية بالمعرفة والمتعة والتشويق، وربما يجد فيها عبرة وتأريخاً، أو صورة قد تكون جميلة لماضٍ رأيته ولا أزال أراه جميلاً..

وهكذا أكون قد حاولت رصد تلك الحكايات والمناخات الإنسانية التي لن تعود.. ولن تعود أبداً...

لندن

١٤/١٢/٢٠٠٦م

كَشفْ

كان الليل يهمي بصمته على أزقة القرية.. وكان كلب يهذي من بعيد يأتي صوته متهدجاً عبر خيوط الريح.. والقمر يفرش ثوبه الفضي على رؤوس النخيل وهامات الأشجار،، وأهل القرية دخلوا كلهم في أحلام لذيذة مخمورة مثل لذة النسيم المتموج فوق لحفهم «فيتقرفصون» داخلها ويدخلون في ملكوت النوم وسلطانه.. وفجأة ينهق حمار فيصيح الدجاج ويتطاير فيؤذن الديك. يسكت الحمار.. ويعود الدجاج إلى النوم.

أهل القرية لا يستيقظون على نهيق الحمير أو قوقأة الدجاج.. فلقد ولدوا وشبوا معها فكأنها شيء من نومهم أو شيء من أحلامهم..

ولكنه استيقظ على هذا الحادث الغريب.. ولم يستطع بعدها أن ينام، فهذه هي الليلة الأولى التي يقضيها في القرية.

تقلب في فراشه فلم ينم.. جلس وأشعل المصباح وسار في الغرفة ثم أطل على الشارع الضيق حيث يقابله سور طويل لمزرعة نخيل تحف الشارع الذي لم تستطع السيارة التي نقلته الدخول

والخروج منه إلا بصعوبة. راح يراقب هامات النخيل المتطاولة في صمت وقد جللها ضوء القمر.

بهره المنظر وراح يحدق بعينيه الناعستين المؤرقتين في هذه اللوحة الحالمة المبهرة... وراح النسيم يلامس وجهه يحمل معه شذا الزرع والماء المشبع بروائح النبات المختلفة.

للمرة الأولى يتلبسه شعور خفي بالغبطة والابتهاج بالرغم من قلقه المشوب بالخوف من الدخول في عالم القرية.

وللمرة الأولى يتراءى له الجمال بهذه الشفافية الكثيفة فيشع داخله بالفأل والطمأنينة والحبور متجاوزاً أوهام الخوف والقلق إلى الاندماج في ملكوت الجمال والتعانق معه في ود غير مصطنع.. من هذه النافذة الصغيرة شرع في استعادة أحلام وتفاصيل صغيرة نمت منذ عهد الطفولة كخيالات غير مرئية أو منضبطة التكوين.. وإذا به يطل على صورة من تلك الصور المرسومة في ذاكرة النشوء فيسرح في فضاءات الحلم والواقع.. رائعة هي القرية، رائعة هي الطبيعة، رائعة هي الحياة ببساطتها وتلقائيتها ونظامها البديع.. في هذه الخلوة الصوفية الممتدة المنسجمة مع ذاتها.. هذا هو التكوين الأزلي للأشياء.

منذ الأزل وهذه موسيقى الحياة.. وخيل إليه أن هذه اللوحة نوتة لمعزوفة الليل السرمدية: صوت الأحياء مع صوت الكائنات التي

تنمو جمالاً صامتاً عبقري اللحن.. عبقري الخلود.. وعادت الأشياء تغفو وظل صاحي الروح، مستيقظ الإحساس..مشرق الوجدان.. يا لها من مغامرة.. يا له من اكتشاف.. اكتشاف القرية، بل اكتشاف الحياة.. كان يتصور أن الحياة هي المدينة.. هذه الورشة الضخمة التي يمتزج صوت آلاتها مع بشرها.. مع أضوائها.. مع جوعها وأوجاعها... مع مجرميها ولصوصها.. مع ثرثرتها الصاخبة وزمنها الراكض العنيف.. مع ليلها المعطوب بالسهر.. وظل واجماً حالماً كعابد في محراب من النور.. وخفقت حمامة تنفض عن جناحيها الطل في رأس نخلة.. فاستيقظ من حلمه.. وبعد هنيهة شرعت الحمامة ترتل نشيداً ساحراً يؤذن ببزوغ الفجر واستيقاظ القرية على لحن جديد أو يوم جديد.

الدّيمُخراطيَّة

يَذْكرُ وهو في السابعة من عمره أن مشكلة حدثت في قريتهم. هذه المشكلة تدور حول اختيار إمام يصلي بأهل الحي في رمضان.. إذ لم يكن إمام المسجد العادي حافظاً للقرآن ولا مجوداً ولا قارئاً جيداً. وكان يُكتفى به لصلاة الفروض. وشهر رمضان شهر عبادة، يتهجد الناس فيه ويحيونه بالقيام والتعبد. فكان لا بد والحالة هذه من اختيار إمام في مستوى مناسبة هذا الشهر الكريم.. ورشَّح ناس من أهل الحي إماماً ورشَّح آخرون إماماً آخر.. وفئة منهم رشَّحت ثالثاً.. وحدثت ضجة وجدل واختلاف كاد يؤدي إلى تعطيل الصلاة.. وكان ذلك في الليالي الأخيرة من شهر شعبان أي قبل رمضان بليلتين أو ثلاث..

تجمَّع القوم - أو الجماعة - عند أكبر أهل الحي سناً وهو عادة صاحب الكلمة فيهم، وكانوا قبل أن يدخلوا الاجتماع منقسمين إلى ثلاث فرق في الساحة الكبيرة أمام بيته.. وكانت كل فرقة تخطط لفوز مرشحها. ويذكر أن الحماسة أخذته إلى الجانب الذي كان فيه عمه.. إذ إن والده لم تعجبه الطريقة ولم يعجبه الاختلاف،

وكان يقول: هذا تشاحن واختلاف لا يليق بالشهر الكريم.. كيف يأخذكم التنافس وتنسون أن هذا الشهر شهر المحبة والمغفرة..؟ فلم يحضر..

اجتمع الناس في مجلس الشيخ وهم منقسمون، كل حزب مجتمع لوحده منفصل عن الآخر.

وتحدث الشيخ حديثه البسيط على سجيته.. فلم يكن مثقفاً ثقافة جيدة، ولكنه كان مجرباً قد عركته الأيام وعلمته التجارب؛ فأضافت إليه ما يجعله يميل إلى الحكمة والتروي والهدوء وعدم العجلة.. ومن خلال ذلك حاول أن يقنعهم بالاتفاق على إمام واحد. ولكنه لم ينجح ولم يستطع فكل حزب بما لديهم مقتنعون.

وأديرت القهوة، والشاي ووضعت الفاكهة وقام الناس مرة أخرى إلى مجلسهم ولم يصلوا إلى حل.

طرح الشيخ فكرة التصويت فوافقوا عليها بعد تردد..

وخرج واحد من المرشَّحين، وتعادل المرشَّحان الآخران في عدد الأصوات.. وحسم الأمر بأن شارك بعض الذين انسحب مرشحهم من التصويت، وفعلاً انتهت جولة الترشيح بفوز واحد بفارق صوتين.

ودخل رمضان وصلى بهم المرشح الأول وكان حسن الصوت، جيد الحفظ، مؤثر الدعاء.. فكان الناس نساءً ورجالاً يبكون إذا شرع في قراءة الدعاء.. وكان الناس يولمون في شهر رمضان كل ليلة - يسمون الوليمة «عشاء الوالدين».. كل ليلة عند شخص إلى أن تنتهي ليالي الشهر الكريم بالولائم والصلاة، والدعاء.

وكان الوقت ربيعاً وقد هطل مطر عميم ذات ليلة، وخرج الناس قبل الصلاة حاملين سرجهم ومصابيحهم يخوضون في مجاري السيل القادمة من الجبل تسقي النخيل والمزارع..

وخاض الإمام مغتبطاً متبركاً بالسيل فلدغته حية حملها السيل من الجبل فحملوه إلى مستشفى المدينة.

وبحثوا عن إمام يصلي بهم فلم يجدوا في ليلتهم تلك إلا أستاذاً من بلد عربي يعمل في مدرستهم كان حاضراً الوليمة «الرمضانية» حيث دعاه صاحب المنزل معهم إكراماً لهذا الأستاذ الذي يدرِّس ابنه.. وقد رشحه للصلاة بهم هذه الليلة فهو معروف بالاستقامة وحفظ القرآن الكريم.. ولكن الناس اختلفوا حول جواز الصلاة خلفه فهو حليق اللحية ويلبس البنطال - لبس الغربيين الكفار - ولكنهم تحت طائلة الاضطرار وافقوا.

وشرع الأستاذ في صلاته يؤم المصلين، وحينما جلس للتحيات وكان ثقيل البدن جداً، تمزق بنطاله وانشق بصوت مسموع، بل

أحدث صوتاً هائلاً، وبحركة لا شعورية منه التفت إلى المصلين قائلاً: «ما تآخذونا».. فضج المصلون بالضحك وقطعوا صلاتهم.. وأمضوا ليلتهم تلك في الضحك وبلا صلاة تراويح.

وفي الليلة الأخرى جاء المرشح الثاني وكان لا يقل جمالاً في قراءته وصوته عن المرشح الأول، وقبل نهاية الشهر بثماني ليال، شفي الإمام الأول وجاء للصلاة وقد وقع «الجماعة» في حرج شديد وكادوا يختلفون.. إلا أنهم عادوا للمشورة؛ وبعد مجادلة وأخذ ورد اتفقوا على أن تقسم الصلاة بين الاثنين أحدهما يصلي التراويح في أول الليل.. والثاني يؤمهم لصلاة القيام في آخره.

وأصبح لمسجدهم إمامان..

وذات ليلة، وكانت ليلة نهاية الأسبوع، قدم أحد شبان القرية من المدينة.. حيث كان يواصل دراسته الجامعية فلما سمع بقصة الإمامين وحل الخلاف الذي كاد ينشأ.. أعجب بالفكرة وقال بحماسة: نعم الرأي.. هذه هي والله «الديموقراطية».. فسأله بعض جماعة المسجد وما هي «الديموخراطية» قال اسمها: الديموقراطية وليست «الديمخراطية» وهي كلمة أصلها «غربي» تعني المساواة، والتشاور في الأمر.. فضج الجماعة كلهم وقالوا: هل نقبل أن تكون ديموخراطية الكفار في مسجدنا.. فأبعدوا الإمامين وجاؤوا بالمرشح الثالث الذي سبق أن انسحب!!

فكانت هذه أول مرة يكون لمسجدنا ثلاثة أئمة، وأول مرة أحضر مجالس ترشيح وانتخابات.. وأول مرة أسمع فيها بالديموقراطية أو «الديموخراطية» الكافرة.

وجُوه مِن الزّمن الجَمِيل

بعض الناس يمنحهم الله من سره ما لا يمنحه لغيرهم، فنراهم يتصفون بصفات ومزايا خاصة بهم، لو قلدهم أو حاول محاكاتهم غيرهم لفشل، وما عمل مثل ما يعملون، وما لاقى من القبول والمحبة واكتمال الشخصية في طبعهم هذا مثل الذي يتمتع به أولئك.

وهؤلاء ندرة وقلة ينبتون في المجتمعات المتماسكة والمترابطة التي تجمعها رقعة جغرافية ومحيط اجتماعي متشابه.. أذكر من هؤلاء شخصية فريدة عايشتها وعاينتها في طفولتي وصباي.. هذه الشخصية تركت في ذهني وعاطفتي انطباعاً مثالياً ورائعاً للإنسان السوي اللطيف الطيب والطاهر القلب الزكي النفس الذي يتدفق بالخير حتى في شكله وملامحه.

كان رجلاً مهيباً طويلاً، له ملامح صافية، وكان ميمون النقية، بشوش الوجه، دائم الابتسامة، يزور حَيَّنا بين الحين والحين، فتشعر أن في الحي تغيراً تاماً، كما تتغير الأجواء حينما يزورها المطر. لست مبالغاً ولكنني أصف مشاعري نحوه بدقة وأمانة، وتلك

مشاعر لاشك أن للطفولة والصبا وتكوينهما النفسي دوراً مهماً في رسم ملامح شخصيته.

كان إذا زار الحي يزور الناس بيتاً بيتاً «يشرب قهوة كل بيت» يطمئن ويسأل عن الصغير والكبير، ثم ينتقل إلى البيت الآخر، وكان الناس يستقبلونه بالحفاوة والمودة والترحيب، وكنت تشم رائحة بخور العود في كل بيت، وكنت ترى البشاشة والسعادة والحبور طافحة في وجوه مستقبليه.. كان محباً، وكان محبوباً.. كان يمر بنا ونحن نلعب، فيقبلنا، ويداعبنا، ويسأل عنا فرداً فرداً، ويطلب منا أن نسمعه شيئاً من القرآن الكريم، أو النشيد، أو الشعر، ثم ينفح كل واحد منا ريالاً أو ريالين يضعها في كفّه أو يدسها في جيبه، وقبل أن يغادرنا ينصحنا بالاجتهاد والمذاكرة وطلب العلم، وعدم إضاعة الوقت في الإهمال أو العبث.. وكنا نشعر نحوه بود، ونشعر له بهيبة، وإجلال في نفوسنا، وكنا نرى في شخصيته الصورة الكاملة والنبيلة للرجل المتكامل النبيل.

وغاب الرجل، وجرفتنا الأيام، وتعاقبت الأحداث، وشؤون الحياة، وفرطت من بين أكفنا تلك الأزمنة السعيدة، وظهرت في حياتنا شخصيات مختلفة، ومتعددة، ورأينا أناساً مختلفين، في مواهبهم، وقدراتهم، ونفوذهم، وأهميتهم، وكل منهم له ميزته، وله مكانته، وتقديره.. أكاديميون، وقياديون، ومبدعون، ولكنني أبداً لم

أشعر تجاه أحد منهم بذلك الشعور من سيطرة وهيمنة تلك الشخصية البسيطة، الفطرية النادرة.. حتى ليخيل إليّ أنها تولد هكذا دونما تكلف أو اجتهاد في التصنُّع ومحاولة تجميل السلوك، وإنما هي شخصيات مفطورة على تلك الجاذبية الساحرة.. تلك الشخصيات التي ترسم على جدار الذاكرة لوحة رائعة، وصورة مثالية للإنسان النبيل.

أعود وأقول إن للطفولة والصبا دوراً مهماً في رسم تلك الملامح وإعطائها ربما صفة الرمز النادر، ربما للتوق، والعطش، النفسي في حالة التشكل إلى مثل تلك الشخصية..!! غير أن المؤكد أن تلك الأنفس كانت تنطوي على جاذبية خاصة، في زمن خاص، وأبقت في الوجدان ذاكرة ورائحة خاصة.. وأظن أن تلك الشخصيات لا يمكن أن تنبت في المجتمعات التي تعاني مما يسمى بالتعقيد الحضاري، والارتباك الاجتماعي، والاندفاع المادي المحموم؛ لأنها تماماً مثل الورود النادرة لا يمكن أن تنبت بين كتل الخرسانة والحديد، ولا بين خرائب الأنقاض.

ورحم الله تلك الشخصية، ورحم الله زماناً أطلعها فقد كان زمان حب وخير ونقاء..

أَبو نُيوتِنْ

هو رجل غريب وبالرغم من ذلك فأظنه أسعد إنسان رأيته في حياتي.. إنه رجل بين عقلين: عقل يقرأ ويلتهم كل ما يقرؤه... ويسمع ويحفظ كل ما يسمعه. وعقل فيه ضعف، وسذاجة إلى درجة تجعل منه عقلاً أبله.

كان يتحدث حينما يتحدث بكلام الواثق، بكلام المثقف العالم، ويأتي بأشياء غريبة على مستمعيه، وعلى مجتمعه، وذلك نتيجة لما يقرأ ويسمع. كان يحمل دائماً في يده «راديو» صغيراً يتنقل بين موجاته.. يسمع الأخبار، ثم الأحاديث، والتمثيليات، وإلى ما هنالك مما تبثه الإذاعات العربية.

كان لديه طفل، وكان معجباً بطفله أشد الإعجاب، يتوسم فيه النبوغ والعبقرية.. وذات مرة أقبل وهو واضع يده في يد طفله، فسلم ووقف على مجموعة من الشيوخ وهم جلوس في المشراق أمام محراب المسجد، وقال: إنني أتنبأ لابني هذا بأن يكون عبقرياً، وربما تفوق على «نيوتن» في اختراعاته ومبتكراته. ونظر الجميع إلى الطفل الذي غرقت قدماه الحافيتان في الغبار حتى ابيضتا،

حتى ليخيل إليك أنه ينتعل حذاءً أبيض، ثم انحنى على ابنه وهو يمسح بيده أنفه ويقول: هذا هو «نيوتن».. نيوتن السعودية.. ماذا تقولون..؟ فقال أحد الشيوخ: «والله ما ندري وش «التتن» اللي تكلم عنه لكن يمكن يصير ولدك هذا تتان». ضحكوا، ورد وهو يضحك معهم: «نيوتن» ياجاهل ما هو تتن.. «نيوتن» مكتشف الجاذبية..!! فقال الشيخ: ويش الجاذبية..؟ قال: الجاذبية هي اللي تشدك إلى الأرض ولولاها لطرت أنت وخلقانك في السماء..

فالتفت الشيخ إلى الجالسين وقال: «ياجماعة، ألا يوجد منكم من يحسن في هذا المجنون، ويذهب به إلى «الصمعاني» يكوي رأسه..؟ هذا في رأسه فتق.. من الله خلقه وهو يمشي ويخرف بمثل هذه الخرابيط»..

فرد «أبو نيوتن» وهو مستغرق في الضحك قائلاً: أجل رأسي رأس حمار مثلك..؟!!

فنهض الشيخ غاضباً يحوقل وقد أثار عجة خلف نعاله.. و«أبو نيوتن» يضحك ويقول: أنت والله الخبل.. لا تعرف «نيوتن» ولا تعرف الجاذبية، وتزعل من الناس إذا علموك..!!

وظل «أبو نيوتن» زمناً طويلاً مولعاً بالحديث عن عبقرية ابنه، وعن مستقبله، الذي سوف يغير كثيراً من ظواهر الكون..!!

ربما كان «أبو نيوتن» مبالغاً في حدسه، وربما كان متفائلاً، وربما كان جاهلاً بالعبقرية، والموهبة.. كل ذلك كان وارداً ومحتملاً، لكن الأيام مرت سريعاً ولم يسمع الناس في البلدة وما حولها عن عبقرية جديدة.

لست أدري أين «نيوتن» الآن وماذا آلت به موهبته التي رآها والده.. ولست أدري أيضاً أين ذهب «أبو نيوتن».. شيء واحد ظل ثابتاً في الذاكرة، هو ذلك الرجل الطيب، البسيط، وهو يسير بابنه في أسواق الدرعية، ووادي حنيفه، ظاناً أن الأماني والمحبة، والتفاؤل، حين تكون مشوبة بشيء من ثقافة مهزوزة ضعيفة مثل ثقافته.. قادرة على صنع وخلق العبقرية...

وبالرغم من بساطة «أبو نيوتن» وسذاجته وربما غفلته.. فما أجمل تلك الأيام، وما أجمل تلك الأحلام، فقد كان الناس على بدائيتهم يتمنون، ويحلمون، ويطمعون، في أن يكون لهم أثر في الكون والوجود.. أما اليوم فبالرغم من كل منجزات العصر ومعطياته وإمكانية الإبداع والتفوق، فلا يوجد في حينا من يحلم، بل ولا يحاول، ولا يريد أن يحلم بأن يكون له ابن، أو حفيد يصنع، ويبدع، أو يكتشف حتى ولو كان الأمر على مستوى وطريقة «أبو نيوتن» وابنه.

ذُو الحِمارَين

أتذكر فيما أتذكر من بقايا ذكريات الطفولة ذلك الشيخ الذي ترمقه العيون إذا مر وظهر.. وتعلكه الألسن إذا توارى واختفى.. لم يكن الرجل شريراً ولا مخيفاً ولا مؤذياً، ولكن كان ذا شخصية فيها كثير من الطرافة أو قل الغرابة..

من أندر ما يحكى عنه.. أنه كان له حماران.. أحدهما لركوبه، والآخر كان للحمل ونقل الأثقال.. وكان حمار الركوب مدللاً منعماً مترفاً يطعمه أفضل أنواع البرسيم، والتمر، والماء البارد.. بل كان يعتني بمظهره فيغسل عنه العرق ويضع الأربطة الملونة على عنقه.. وكان إذا ركبه يهش عليه بيده كي يسير، ويهز قدميه إذا أراد له الإسراع.. حتى صار حماره هذا مضرب المثل في الإكرام والعناية.

أما الحمار الآخر فقد كان ذا جسم فاره وجثة ضخمة.. كان يحمله حزم الحطب الجزل، وقرب الماء، وأكياس الحبوب.. وحزم البرسيم التي يحملها، ولا يذوقها.. وكان يدمي جسده بالضرب واللكز إذا تهادى في مشيه.. أو إذا أنهكته الحمولة وهو يصعد في طريق أو يخوض في وحل.. حتى صار قفاه محفراً دامياً من الوخز واللكز..

إضافة إلى سوء التغذية!.. فكان يقتات على ما تيسر من مخلفات في الطريق أو ما تيسر من تبن وقصب يتعب فكيه ويجرح أمعاءه.. ومع هذا ظل صابراً غافراً متحملاً للأذى والهوان والحيف وظلم المعاملة.

وكان الحمار الأول المدلل في «حجيرة» خاصة فيها ظل وشمس ويأتيها الهواء من جميع أطرافها.. أما الآخر فكان مربوطاً بحبل وفي حظيرة ضيقة لا سقف لها يحميه من حرارة الشمس أو زمهرير البرد..

وذات يوم انحل رباطه فدلف إلى حجيرة الحمار المدلل ويبدو أنه لم يحسن استقباله بل حاول إخراجه بالرفس والعض..

وقف حمار الأثقال قليلاً وفكر ودبر ثم انقض على حمار الركوب فأشبعه عضاً، ورمحاً، ورفساً، حتى مزق جسده وحوله إلى كومة تحت حوافره.. وكأنه ينتقم لسنوات الظلم والجوع والاضطهاد.. ثم اختار ركناً قصياً من الحجيرة وربض واضعاً رأسه مستريحاً على الأرض ونام.. وكأنه يقول لنفسه: آن لي أن أنام شريفاً ذا كرامة.

وفي الصباح الباكر حمل الشيخ حبله وفأسه ودلف إلى الحجرة فوجد حماره «المدلل» مضرجاً بدمائه يئن أنيناً مفجعاً.. وحين أحس قدوم صاحبه رفع رأسه كأنه يشكو له الحال ويطلب منه النجدة..

حين نظر إلى الركن الآخر وجد حمار الأثقال نائماً هادئاً قرير العين فوثب عليه حانقاً وأهوى على رأسه بالفأس حتى غابت كلها في دماغه وحين سحبها كان حمار الأثقال يغط في نومة أبدية.

رجع إلى حماره المدلل وراح يمسح عنه الدم ويقوم بعلاجه وظل على هذه الحال أياماً إلا أن الحمار بالرغم من العناية الطبية الفائقة مات متأثراً بجراحه.

ومنذ ذلك الحين ظل الناس يرددون حكاية "أبو حمارين" كلما عنت لهم قضية ذات طرافة أو حماقة أو غفلة.

دَجَاجات أُمّ سَالم

عندما نجحنا من المرحلة الابتدائية، اشترى لنا الوالد بندقية صيد نصف شوزن «Shotgun» هدية النجاح. وقد غضب عمي لهذه الهدية، واحتد على والدي وقال: أتضع مثل هذا السلاح الخطر في يد هؤلاء الأطفال..؟ والنخيل مليئة بالعمال والخرافين..!! فقال له: لا تخف.. فالله خير حافظ.

وراح الوالد يدربنا عليها ويعلمنا طريقة استعمالها، وكيف يجب علينا أن نكون حذرين متيقظين عند شحنها وعند إطلاق النار.. وصرنا ننطلق مع الفجر في مواسم قدوم الطيور المهاجرة كالصفاري، والخواضير، والغرانيق، التي تأوي إلى النخيل في موسم التمر..

وكانت هناك عجوز يقال لها «أم سالم» تسكن في طرف قصي من إحدى المزارع في بيت بسيط تربي فيه الحمام والأغنام، والدجاج.. فقد كانت تمون معلمي المدرسة وبعض العاملين بمركز التنمية الاجتماعية بالبيض، والحمام. وكانت تجني من عملها هذا أرباحاً جيدة، فقد راجت تجارتها بين الوافدين للعمل في البلدة..

ولم ينغص عليها ويؤذيها إلا ثعلب صار يغدو عليها باكراً أو يهجدها ليلاً فيأكل دجاجاتها ويعبث ببيضها.

ولقد ضاقت ذرعاً بهذا الثعلب، وبذلت جهوداً كبيرة في القضاء عليه فلم تفلح، وذهبت إلى بعض محترفي الرماية وعرضت عليهم قتل الثعلب بأي ثمن يطلبون، ولكن أحداً لم يقبل لأنه لا يريد أن يقال عنه إنه صياد حصاني..[1]

وذات يوم كنت وأخي نسير في أحد الأسواق بين النخيل نطارد الحمام والطيور الأخرى إذ وافتنا تسحب عباءتها وعلى رأسها قفة، فلما حاذتنا ورأت البندقية، استوقفتنا وعرضت علينا قتل الثعلب، فاشترط أخي حمد عشرين ريالاً فضحكت في تعجب وقالت: عشرون ريالاً..؟! هذه كثيرة ياولدي..! فرد قائلاً: وتدفعينها مقدماً. فضحكت عليه وعلى شرطه، ثم قال: «امش ياشيخ هذي عجوز خظاطة أي «خراطة» وكان ألثغ».

وأردنا الانسحاب فوافقت.. واتفقنا على أن نأتي إليها بعد صلاة المغرب لنتعرف على المكان، وفعلاً ذهبنا هناك وفحصنا المكان بدقة وتمعن، فوجدنا أفضل مكان لرصد الثعلب هو سطح المنزل، فقد كان قريباً من حوش الدجاج ومشرفاً عليه، وجهزنا

(١) الحصاني: الثعالب.

أنفسنا وأعددنا عدتنا، وقد أخذت تشجعنا وتقول: «حيا الله النشامى.. أبوكم بواردي، وجدكم بواردي».. وأعدت لنا عشاءً طيباً شهياً ووافراً.. وبعد العشاء حملت إلينا إبريق شاي يكفي لعشرين شخصاً، وأخذت تصب لنا، وتشجعنا على شرب المزيد خوفاً من أن يدركنا النوم أو النعاس.

وبعد أن تأكدت من حماستنا، وعزمنا، ويقظتنا، هبطت إلى غرفتها مطمئنة.. وبعد ساعتين أدرك أخي النعاس فأسند رأسه للجدار فأيقظته واتفقنا على أن نتناوب النوم، ينام بعض الوقت ثم أوقظه، فاذا تعب يوقظني هو، وهكذا بدأنا في التناوب، وطال الليل ولم نر الثعلب، ولم نسمع له صوتاً أو حساً، وقبيل الفجر وكانت النوبة نوبة أخي فزعت فجأة من نومي على إطلاق النار مرتين، متتابعتين، قفزت واقفاً إلى جنب أخي وقد تعالى صوت الطلقات ممتزجاً بأصوات الحيوانات، فقد صاح الدجاج، وطار الحمام، وتثاغت الأغنام والأبقار، ونبحت الكلاب، وسمعنا صوت نهيق حمار من بعيد وكأن القيامة قد قامت، وهبطنا مسرعين والتقينا بأم سالم عند باب البيت وفي يدها السراج وهي تقول: «عاشوا النشامى.. بعدي بعيالي».. وحينما فتحنا حوش الدجاج وجدنا عشر دجاجات قد أسلمن الروح، ومثلها مصابات في أجنحتهن وأرجلهن، ولهن ضجيج مفزع.. أما الثعلب فقد هرب سالماً غانماً معافى. فأخذت العجوز تصيح وتصرخ في وجوهنا، وتقلب دجاجتها

وتضرب رأسها بكفيها.. فتسللنا تحت الظلام هاربين مهزومين، خائبين، وأخذت ألوم أخي وأعنفه على تعجله وعدم تحريه الدقة في التصويب، فصار يسبها ويسب دجاجها معها، وكان يقول: سمعت صياح الدجاج والدنيا ظلام فأطلقت النار..!! وحينما وصلنا البيت اندسسنا في فرشنا خائفين، وجلين من غزوتنا الدجاجية الفاشلة.. وفي الصباح جاءت أم سالم حاملة معها كيساً مليئاً بالدجاج الميت، وألقت به أمام والدي وكان جالساً مع والدتي وجدتي رحمها الله، يتناولون قهوة الصباح، وحكت له القصة فضحك ضحكاً صار يسمعه كل من في البيت، وأخذ يفحص برجله على الفراش، ويضع طرف شماغه في فمه من شدة الضحك. وأم سالم تولول وتعول وتدعو بالويل، والثبور، وعظيم الأمور.. وتصيح وتقول: يامحمد شف فعل عيالك..!! فأجلسها وطيب خاطرها ودفع لها دية دجاجها كاملة ومعها مثلها، وصارت هذه الحكاية تروى فترة طويلة بل يضرب بها المثل في حينا فيقال: «سالفة دجاج أم سالم».

أبولّو ٧٧

كان في بلدتنا رجل غريب الأطوار!! لا تعرف كيف تصفه، فهو ليس عاقلاً.. ولكنه ليس مختلاً!! فهو يأتي بأمور وغرائب، وعجائب لا تدري كيف تصدر عنه. ففيها - أحياناً - براعة ومهارة تدل على ذكاء وفطنة.. وفيها أشياء مضحكة تدل على سذاجة وربما قلة عقل.. فهو مثلاً يقوم بإصلاح الساعات، وأجهزة الراديو «الخربانة» ومرة وربما عن طريق الصدفة - استطاع أن يرسل ذبذبات وأصواتاً إلى راديو الجيران فكنت تسمعه وهو يردد: واحد، اثنين، ثلاثة. ويسأل: هل سمعتم؟ وكنا نعجب، ولا أزال أعجب من هذا العمل الذي من المؤكد أنه حدث بالمصادفة. ولكنه أحياناً يأتي بأشياء غير مفهومة. فهو مثلاً يقوم بنفخ «بالونات» ضخمة بالغاز ويطلقها في الفضاء بعد أن يربط بها عصفوراً أو جرادة أو أية حشرة.! وكان لديه حوش أطلق عليه: «المعمل» وكتب على أبوابه ونوافذه: «ممنوع الدخول».. «خطر» ويرسم احياناً جمجمة الموت.. وكانت بالحوش بطاريات قديمة، ومولدات، وأسلاك وعلب، وقوارير معبأة بالجاز، والبنزين، وأشياء أخرى، لم أعد أذكرها.. وكانت

تصدر عن الحوش المغلق طرقات، وضربات، وفرقعات يسمعها من يمر بالشارع..

وفي ذات يوم وكنا خارجين من صلاة المغرب، حيث نجلس عادة عند ساحة المسجد، تقدم إلينا وأعطى كل واحد منا ورقة صغيرة هي عبارة عن دعوة لحضور حفل إطلاق المركبة «أبولو» رقم: ٧٧ وذلك بعد صلاة العصر من يوم غدٍ. والذي سوف يقص شريط افتتاحه هو الاستاذ خليل أستاذ مادة العلوم والرياضيات في المدرسة.. وتوجهنا بداعي الفضول والمتعة إلى مقر الحفل فوجدنا عند باب الحوش طفلين أنيقين قد ارتديا لباس الكشافة.. وحينما دخلنا الحوش وجدناه مرشوشاً ووجدنا كراسي، ومرطبات مصفوفة على الطاولة، وخيطاً أحمر موصلاً بين خشبتين.. وبعد أن جلسنا وقف وحيانا بشكل سريع، ثم أخذ يشرح لنا أسرار مركبته، وانه حفيد عباس بن فرناس، كما أنه سوف يكتشف عوالم أخرى، وينطلق إلى فضاءات وكواكب أبعد مما وَصَل إليه الأمريكان والروس مجتمعين.. هؤلاء المتطفلون على علم جدنا عباس.! أما المركبة فكانت عبارة عن ثلاثة براميل وصل بعضها بالآخر، وقد صبغت باللون الأبيض، ويستقر على رأس البراميل مثلث كرتوني مصبوغ باللون الأزرق، وفي الأسفل يقوم الجسم على صندوق مطلي باللون الأحمر كقاعدة وبداخل الصندوق كرسي دوار تراه من خلال فتحة سوف يدخل منها رائد الفضاء.. وزعت المرطبات واختفى

صاحبنا قليلاً ثم عاد وهو يرتدي لباساً رياضياً مرشوشاً بطلاء فسفوري، وقد لبس قبعة ونظارات سوداء. وتقدم إلى الأستاذ خليل وأعطاه المقص، وطلب إلى الجميع الوقوف عند قص الشريط.. وتم قص الشريط وسط هتافاتنا وتصفيقنا، وصفيرنا إلا أن الأستاذ خليل انسحب ووقف عند باب الحوش.. بينما دخل رائد الفضاء إلى مقصورته، وجلس على الكرسي الدوار، وأخذ يشعل بعض المصابيح المختلفة الألوان، ويحرك اشياء تصدر أصواتاً شبيهة بذبذبات راديو قديم، ولكنها حادة ولها جلبة.. هرب الأستاذ خليل فتبعناه.. وبعيداً على مرتفع هناك وقفنا نتفرج، وننظر جميعاً إلى السماء، حيث سيطرت علينا حالة تصديق لا إرادية وصار لدينا يقين تلقائي لا يقبل الشك بأن أبولو ٧٧ سوف تنطلق!!

ولكن دخاناً، وفرقعات، وناراً اشتعلت وملأت الجو فوق رؤوسنا فولينا مذعورين..

وظلت حالة ذلك الشخص في أذهاننا حالة غريبة غير واضحة المعالم ولا ندري كيف نفسرها. وكنا نسأل: أهو حقاً مجنون؟ أم أنه ذكي في زي مجنون؟ أم أن تلك الحالة هي حالة وسطى بين العقل واللاعقل؟..

* * *

مُخَاوِزْ

اسمحوا لي أن أبدأ هذا الموضوع بقصة للدلالة على معنى هذه الكلمة. التي لا أعرف من أية لغة جاءت حتى الآن. فلقد سمعناها ونحن أطفال حيث شاعت وذاعت في المدرسة بل وفي البلدة كلها؛ وذلك أن فريق الدرعية الرياضي ذهب للرياض لمقابلة أحد الأندية، وكان أهل البلد قد أعدوا أنفسهم إعداداً طيباً فخرجوا يشجعون الفريق وهو يتدرب في مركز التنمية الاجتماعية مدة أسبوع كامل، بل أُحييت ليلة أقيمت فيها العرضة النجدية «لتحميس» اللاعبين وكأنهم ذاهبون إلى معركة.. المهم أنها أجريت المقابلة في ملعب الصائغ بالرياض، ولا أذكر مع أي الفرق، ولكن فريقنا العتيد هُزِم شَر هزيمة، حيث ولجت شباكه عشرة أهداف متتابعة تتابع طلقات الرشاش، ولم يستطع أن يسجل هدفاً واحداً، بل لم يستطع أن يقترب من حمى ملعب الخصم، فقد كان حارسه واقفاً طوال الوقت يشرب البارد ويتحدث مع الجمهور، على عكس ما لاقاه حارسنا الذي أبلى بلاء حسناً فأخذ يذود عن مرماه ببسالة وحماسة بالرغم من كونه «أصمخ» لا يسمع، إلا أنه كان ذا بنية قوية، وكان يقفز إلى الكرات كالنمر وهو يصيح ويهدر.. ولكن

المسكين لم يستطع أن يوقف سيل وهدير القذائف الهائلة التي تأتيه من كل صوب وناحية من أقدام لاعبين محترفين مهرة، ويقال إنه لولا بسالته الخارقة لمني فريقنا بأضعاف أضعاف النتيجة.. ورحمة بفريقنا الضعيف الهزيل وحارسنا الذي تمزقت يداه وسال الدم من أنفه من هول القذائف التي كان يتصدى لها، فقد أنهى الحكم المباراة قبل وقتها الأصلي بعشر دقائق.

وحينما ركب اللاعبون والمدرب «الباص» الذي أقلهم عائدين بهذه الهزيمة الثقيلة إلى الدرعية.. صاح المدرب وكان سودانياً: «الحكم دا ياخونّا مخاوز.. عليّ الطلاء تلاثة أنه مخاوز.. خَسَّرنا عشر دقائق كنا قادرين نَعوّزْ فيها الخسارة البايخة دي». وصفق اللاعبون وهللوا لحديث مدربهم العظيم ليخففوا من وزر الهزيمة النكراء، وليجدوا حجة أمام الجماهير المحتشدة، حتى من الشيوخ، والذين أوقدوا نيرانهم وأولوا ذبائحهم لاستقبال فريق أهل «العوجا» العتيد.. وما إن وصلوا والتقى الوجه بالوجه حتى صاح المدرب وصاح اللاعبون: الحكم «مخاوز» هزمنا الحكم..

وصدق الكثيرون هذه النكتة، وأخذوا يلعنون جد الحكم الذي كان سبباً في الهزيمة. وتجمع الناس حول المدرب الذي نفخ صدره وراح يقسم ويحلف بالإيمان المغلظة، ويكرر الطلاق أنه لولا «الخشونة» وإضاعة الوقت من قبل الحكم «المخاوز» لكنا منتصرين.

وفي الصباح ذهب أهل الدرعية لرئيس مركز التنمية لرفع احتجاج شديد اللهجة إلى الجهات المسؤولة ضد الحكم «المخاوز»، وكان الاحتجاج موقعاً من رئيس النادي، ويبدو أن الاحتجاج عاد مهزوماً خائباً تماماً كجميع احتجاجات السيد عمرو موسى أيامنا هذه..

• المهم أننا خرجنا إلى الحياة، وكبرت معنا كلمة «مخاوز»، وتعلمنا أشياء كثيرة، ورأينا أشياء كثيرة، كلها تقف ضدنا، أي أنها «مخاوزة»..

فهيئة الأمم المتحدة تُسقط سبعين قراراً دولياً ضد إسرائيل، لكن هذه الهيئة المظفرة دائماً تضع حيلها وجهدها علينا، وتطبق كل قرار يقع على رؤوسنا بحذافيره - وحذافير الحمار - أعزكم الله - هي أطرافه إذا كانت مجتمعة -.. أما سيدة الجميع أمريكا فهي بطبيعة الحال واقفة ضدنا على طول الخط.. بل واقفة لنا بالمرصاد، فما إن نهم بفتح أفواهنا حتى تقمعنا قمعة رهيبة بعصاها الغليظة فنضيع معها الطريق.. بل يرتج لها عقلنا، فنظل مذهولين، مصعوقين، نتلمس دروبنا على حدس وخوف ورعب.. لكننا نضيع طريقنا ونضيع نهجنا ولا نكسب إلا مزيداً من التخبط والضياع ومزيداً من الضربات التي تفقدنا صوابنا..

وأوروبا هي الأخرى تكرهنا، ولا تريد أن تسمع أحاديثنا المملة، ولا شكوانا المملة.. وروسيا تخلت عنا بعد أن تخلينا عنها.. بل بعد

أن وقفنا ضدها وأذقناها طعنات مؤلمة من «مجاهدينا» في أفغانستان، وغيرها، وهي لن تغفر لنا ذلك الذنب بل ستظل تشمت بنا وبعاقبة أعمالنا..

الصين ليس لديها الاستعداد للاقتراب منا، فهي ترانا كالجَرَب لا بد أن يصيبها شيء من الأذى إن هي اقتربت منا. كل صار يتحاشانا ويحاول الاجتناب والابتعاد عنا.. تماماً كما تحاشت العشيرة شاعرها طرفة بن العبد بل تحاشته القبيلة كلها وأفردته - إفراد البعير المعبد- كما يقول في قصيدته..

أي أن العالم كله «مخاوز» ضدنا، وتلك حقيقة... ولكن الحقيقة الصارخة أيضاً أننا «مخاوزون» ضد أنفسنا، فكلنا ضد بعضنا.. كلنا نقف دائماً على حد التناقض مع أنفسنا.. بعضنا يلوم بعضاً، وبعضنا يغدر بالآخر.. جسدنا موهن بالأمراض والعلل، والجروح والكسور، وفقر الدم، وفقر المحبة، وفقر العزيمة... فجاءت لياقتنا ضعيفة، وعزيمتنا ضعيفة، وأصبحنا متهالكين غير قادرين على مجاراة الآخرين، فضلاً عن الفوز عليهم.

تماماً كفريقنا ذلك الذي اكتسحته الأهداف ومزقت شباكه، على الرغم من أنف مدربنا البائس، وإيمانه وطلاقاته، وعلى الرغم من كلمة «مخاوز» التي انحفرت في عقولنا، كما انحفرت كلمة الهزيمة و«النكسة» في تاريخنا وذاكرتنا وعقليتنا العربية جمعاء..

المُثقَّف

في حيّنا وكنا صغاراً رجل عجيب السلوك والمظهر.. كان يدعي العلم والمعرفة والثقافة.. وإذا كان أهل الحي لا يطلقون عليه المثقف فإنهم كانوا جميعاً يعتبرونه كذلك أو أن سلوكه معهم يرشحه لذلك.

كان أنيق المظهر إلى درجة المبالغة، ملابسه غاية في النظافة والجمال، حذاؤه كان نظيفاً وبراقاً، وكان يحمل في جيبه ذلك القلم الثمين ذا الغطاء الذهبي اللماع.

وكان في حديثه يحاول أن يكون فصيحاً بل هذا ما كنا نعتقده ويعتقده الكثيرون من سكان الحي.. فهو يتأنق في كلامه ويرسله مقطّعاً أنيقاً بالرغم مما فيه من كثرة التقعر.

وكان دائماً يحمل في يده كتاباً وفي بعض الأحيان يحمل مع الكتاب جريدة أو مجلة. وكان الناس عادة يجلسون في ساحات الأحياء أو في أركان الأسواق كل جيل يجتمع مع جيله ويتحدث معه.. أما هو فلا يجلس مع أحد لا مع الكبار ولا مع الشبان، ولا مع الأطفال.. ولكنه إذا سمع جدلاً عند الشيوخ أو عند الشباب أو بحثاً في قضية من القضايا لديهم يقف يستمع ويصغي ويطيل

الإصغاء.. فإذا خف الجدل، أو النقاش راح يتحدث مدلياً برأيه في هذا النقاش مدعماً ذلك بحصيلته الثقافية التي يظن أنها حصيلة نادرة، وأنه لا يشابهه ولا يجابهه أو يماثله فيها أحد. فإن كانت القضية سياسية مثلاً راح يتحدث عن محفوظاته في هذا المجال مستنداً إلى أقوال أشهر السياسيين مثل: ديغول، وروزفلت، وتشرشل.

وكان يحظى لدى الناس بشيء من الاحترام وشيء من السخرية لهذه المعلومات التي يتحدث عنها ويستند إليها.. فهم يعتبرون ذلك شيئاً من المعرفة بصرف النظر عن عدم كمال هذه المعرفة. ولكنهم يسخرون من تزمته والاعتداد بنفسه إلى درجة الرعونة.

في ذات مرة وفي إحدى المناسبات التي اجتمع فيها معظم أهل الحي شيوخاً وكهولاً وشباناً، أثيرت قضية، وتجادل فيها الجميع، وكان واقفاً ينصت واضعاً كتابه تحت إبطه، وفجأة قال بصوت مرتفع: وجدتها وجدتها كما يقول أرخميدس.

رمقه الجالسون بنظراتهم في استغراب وقال أحد الشيوخ: ما التي وجدتها ومن هو خميدس؟ تبسم ضاحكاً وقال في زهو أرخميدس أرخميدس وليس خميدس. أما التي وجدتها فهي الحقيقة الضائعة في حديثكم.

ومرة تجمع بعض الشيوخ والكهول بعد صلاة العصر من يوم جمعة وكانوا يتحدثون عن خطبة الإمام حيث حمل فيها على الشيوعية، وأصحاب الفكر الشيوعي.. ولكن القوم لم يفهموا شيئاً وراحوا يتحدثون في مجلسهم عن خطبة الإمام وعن الشيوعية التي لم يسمعوا بها قط ولا يدركون ماهيتها ولا يعرفون لماذا شتمها الإمام وحذر منها.. وكان حاضراً فوجدها فرصة ثمينة لاستعراض ثقافته فقال: الشيوعية يا جماعة هي نظرية كارل ماركس وصديقه إنجلز، لهذا فبعضهم يسميها الماركسية.. فلم يفهموا شيئاً..

ثم استطرد: هي ثورة البروليتاريا على الإقطاعيين. فصرخ أحد الشيوخ في وجهه محتداً حانقاً لعدم فهمه لما يقول وطوحه بالعصا التي أخطأته ولكنه لم يتزحزح عن مكانه بل استمر: إن الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وكوريا وكوبا و... تطبق الشيوعية مستندة إلى الحتمية التاريخية.. فنهض كهل ووقف بجانبه ومسك بتلابيبه ورقبته قائلاً: إذا لم تتقلع ضربت برأسك على الحائط. ولكنه خلص رقبته من يد الكهل في اشمئزاز وتابع: سوف أبسِّط لكم ما هي الشيوعية. فحدقت فيه الأعين فقال: هل تعرفون التاجر فلاناً والتاجر فلاناً.. قالوا بالإجماع نعم.

فقال الشيوعية هي أن نأخذ أموالهم ونقوم بتوزيعها على الفقراء أمثالكم بحيث لا يكون هناك فقير وغني وإنما الناس متساوون.

استغرق أحد الشيوخ في الضحك قائلاً: «هذا والله الزين» يا ليت أن الشيوعية تأتي، ثم أتبع: إذا كانت الشيوعية كما تقول.. فلماذا يسبها الإمام اليوم..؟

في هذه الأثناء نادى صاحب المناسبة داعياً الجميع لتناول العشاء.

وذات يوم توفي طفل في الحي وذهب الناس يعزون والده ووقف من بين المعزين.. وحينما رأى والد الطفل قال: عظم الله أجرك.. ولكن لا تنس أنك أنت السبب في موت ابنك!! فدهش الوالد الحزين!! وتابع هو: نعم، أنت لم تتول رعايته والعناية به بالشكل المطلوب، بل تركته حتى افترسته الجراثيم والفيروسات والبكتيريا.

جن جنون الأب وكاد ينفجر.. فما هذه الفيروسات والجراثيم والبكتيريا التي يتحدث عنها هذا الأرعن في هذا الموقف؟! ولكنه كظم غيظه.

وذات مرة ضربه أحد الشيوخ على رأسه؛ لأنه سمع من بعض الناس أنه يقول: إن الأرض كروية وإنها تدور.

وقف الشيخ أمامه وقال: أأنت قلت ذلك..؟ قال: نعم. قال الشيخ: إذاً أنت مجنون.. أيعقل أن تكون الأرض كروية وأنها تدور ونبقى هنا جالسين مستقرين في منازلنا دون أن نسقط على

رؤوسنا نحن وأغنامنا وأشجارنا وبيوتنا.. أتقول هذا يا عدو الله؟ فابتسم في وجه الشيخ وراح يحرك يديه ليشرح له ذلك.. ولكن الشيخ لم يمهله بل أنزل العصا على رأسه فتجمهر الناس وفضوا المشادة.

بعدها صار يتحاشى الحديث مع الشيوخ أو الإنصات إلى أحاديثهم، وكان يقول: هؤلاء حشرات.. هؤلاء متخلفون.. المفترض أن يرحلوا إلى قبورهم.. سوف أؤلف كتاباً أفضح فيه هؤلاء الجهلة وسوف أقوم بتوزيعه على العالم لكي يعرف الناس أن حيَّنا هذا ليس حيَّاً وإنما هو مقبرة لهؤلاء البهائم الأحياء.. وراح فيما بعد يتحدث عن تفاصيل الكتاب وعن الأشخاص الذين سيجلدهم ويفضحهم في كتابه هذا. بل لقد أكد أكثر من مرة بأن كتابه هذا سيكون إحدى العجائب وربما نال جائزة نوبل.

ولكن الأيام مرت ولم يؤلف الكتاب.. وغابت كثير من الوجوه عن الحي، ولم يعد هناك شيء يحتمل الجدل والنقاش.. ودخل الناس في مرحلة اللامبالاة بكل شيء.. وعلى الرغم من ذلك فإنه ظل كما هو يعتني بهندامه، ويحمل كتابه في يده وربما حمل الجريدة أيضاً يسير في الساحات التي لم يعد يجلس بها أحد.

البَـيْطَـار

كـان أبو سـالم وحنيف جـالسين في المشـراق قـد التّـفـا في بشتيهما وغطيا رأسيهما من أشعة شمس العصر. كانا صديقي طفولة وشباب وكهولة وشيخوخة، يعملان في قريتهما والقرى المجاورة، تلك الأعمال اليدوية التي تتطلبها حياة ذلك الزمان، إلى أن شاخا وأجهدهما طريق الحياة الطويل، فألجأهما في النهاية إلى مثل هذا المكان حيث اندمجا في بعضهما اندماجاً يشكل منهما شخصية فريدة.. كانا يتحدثان في كل شيء.. يقطعان وقتهما حتى يؤذن المغرب، ليدب كل منهما على عصاه إلى المسجد..

وكانا يعلقان على كل شيء يمر بهما أو يخطر على بالهما..

وأقبلت سيارة، فقال أبو سالم هذا صوت «شفر» قال حنيف: لا أنا أقول إنها «فورت»..؟

قال أبو سالم: «وانت ويش عرفك بالسيارات الله يرحم حالي وحالك..؟».

رد حنيف: «لا أنت اللي تعرفها لأن أبوك هو اللي صنعها..!!».

وضحكا وأخذ كل واحد منهما يفحص الأرض برجله.

لم يعرفا أن «عميس» كان قد جاء وجلس بجوارهما وأنه يسمع الحوار..!

أصدر «عميس» صوتاً بفمه فتواثبا وأخرجا رأسيهما فضحك «عميس»، ولكن أبو سالم لكزه بالعصا وهو يقول: قم: خسك الله..! لكنه لم يعبأ بهما وقال:

أيها الشيخان الخَرِفَان، ما علاقتكما بالسيارات، والصناعة..؟! قد تعرفان الكثير عن الأبقار والحمير.. لكن السيارات ما الذي تعرفانه عنها..؟ الواحد منكم لا يعرف كيف يركبها؟!!

رد حنيف: «شف عاد أنت «ياعميس» طحت في «التتن» وحفظت كلمتين في المدرسة الليلية ووظفوك في الهيعة.. واعتبرت نفسك بيطاراً..؟!».

ضحك عميس وقال: لا والله أنا لست بيطاراً وأعترف لك ياحنيف بأنك أعظم بيطار في البلد، وأنه لا يماثلك ولا يجاريك إلا أبو سالم..!!

في هذه الأثناء أقبل الشيخ حمد.. وهو عادة في مثل هذه الحزة يأتي إلى المشراق يتحدث مع الجالسين إلى أن يؤذن المؤذن فيذهب إلى المسجد ليؤم المصلين.

قال أبو سالم: إذا أنا بيطار وحنيف بيطار ما الذي بقي للشيخ حمد..؟ وهو إمامنا والذي يكتب قضايانا ووصايانا ويعرف أحوالنا ويزودنا بالأخبار من الرادو.. و..؟

سكت عميس ولم يقل شيئاً، فأنكرها الشيخ حمد في نفسه وقد كان ينتظر المديح والثناء..

ولكن الشيخ حمد يدرك أن «عميس» من هذا الجيل المتمرد الذي لا يقيم وزناً لأحد.. والذي ليس بجيل الكبار ولا جيل الشباب، وإنما هو ذلك الجيل الذي تشكلت ثقافته من خلال المد الحماسي للمنطقة الذي لا يتسم بالعمق أو سلامة التفكير بقدر ما يتسم بروح التمرد والخروج عن المألوف، ومخالفة الواقع الاجتماعي بكل أساليب المخالفة.

حك عميس صدغه وقال: الشيخ حمد يُكَرم..!!

لم يفهم الشيخ ذلك..! وظل مستنكراً تجاهل عميس لمعرفته..!

وعند خروج الناس من المسجد تجمهروا عند الباب وقالوا إن «عميس» لا يستحي، ولا يقيم وزناً لرجال الحسبة، ولا رجال البلد، فكيف ينكر على الشيخ أن يكون عالماً بيطاراً..؟!

فصاح إبراهيم التلميذ في المدرسة الابتدائية قائلاً: هل تعرفون معنى بيطار؟..

إنه طبيب البهائم طبيب الأبقار والحمير..!!

النّجَـاح

في المدرسة الابتدائية كان لنا زميل يُعيّرونه «بالأحوس».. له ساقان طويلتان ورجلان ضخمتان ورقبة طويلة ويدان خرقاوان. وكان عندما ينظر إليك يَصّر عينيه ويدني رأسه.. وكان يفعل ذلك حين يقرأ أو يكتب.. وكان بطيء الفهم، فوضوي الحركة.. وكان المدرسون يجلدونه جلداً عنيفاً.. وكان يتحمل تحملاً شاقاً.

اعتاد هذا الجلد اليومي أو شبه اليومي فلم يعد يشتكي أو يألم كثيراً منه.

كان يستدعيه المدير فيغيب لحظات ثم يعود وهو يفرك يديه أو يسير مضطرباً من شدة الضرب على قدميه.. ولم يكن يجيد شيئاً أو يصلح لشيء إلا لحراسة مرمى الفصل. فقد كان يقف في الباب يقفز فوق رجلي المهاجمين، أو يطير في وجوههم، أو يتقي الكرة بصدره وبطنه وظهره، وربما يدفعها برجليه أو يديه الطويلتين.

وكان كثيراً ما يتعرض لركلات المهاجمين واندفاعهم ولكنه لا يعبأ بذلك وهو يسقط متمرغاً أمام المرمى يحاول إمساك الكرة وعرقلة المهاجمين.

ومرت الأيام وهو يسير ببطء، يرسب سنتين في المرحلة ثم يذهب إلى الأخرى بضعف. وتخرجنا من المدرسة وهو لا يزال بها.. وأصبحنا نراه ما بين فترة وأخرى في الشوارع، أو أمام دكاكين البلدة، أو وهو يقف حارساً مع لاعبي الحي ثم لم نعد نراه.

تركنا البلدة وفرقتنا الأيام ككل جيل يعيش مرحلة ثم تأتي عليه مرحلة أخرى، فتشتت المجموعة في أوجه الدنيا المختلفة.

ومرت الأيام والسنون..

وفي ذات يوم وفي إحدى المناسبات الاجتماعية هب صاحب المناسبة حينما اقتربت سيارة فخمة وذهب مسرعاً تجاهها مع مجموعة من أقاربه، وفتح باب السيارة الفخمة الضخمة وخرج منها رجل فارع الطول يلبس بشتاً فاخراً وقد أقبل يشق طريقه إلى المدعوين محاطاً بصاحب المناسبة وحاشيته، وحينما توسط صدر المجلس تقاطر الحضور يحيونه ويحتفون به.

قال أحد الأصدقاء وكان حاضراً: هل عرفت الرجل..؟ قلت: لا. قال: ولكنك تعرفه!! فأصررت على إنكاري. فأقسم إنني أعرفه. فاستغربت من إصراره ومن أقسامه.. وكدت أقسم إني لم أر هذا الرجل طيلة حياتي. قال: قبل أن تقسم عليك أن تعرف أن الذي أمامك من أصحاب الملايين. قلت: اللهم زد وبارك.. قال: ثم عليك أن تعرف أن الذي أمامك كان أحد زملائنا في المدرسة. فقلت: حمداً لله

صار أحد أصحابنا مليونيراً من العيار الثقيل.. ولكن من صديقنا هذا الذي لا أزال أجهله؟. قال في شيء من اللمز: إنه الأحوس.

قلت: أحقاً ما تقول؟

قال: نعم.

قلت فرحاً: سبحان مغير الأحوال.

قال صديقي: إنه من رجال الأعمال الطيبين والصالحين الذين يبذلون الكثير في وجوه الخير، ويخرجون حق الله وحق الناس.

فقلت: سبحان الله.. لقد أخفق هذا الرجل في طفولته في جانب ونجح في شبابه في جانب آخر.

وهذا دليل على أن الحياة لا فشل فيها إذا صدق الإنسان في كفاحه. فهذا الذي كان أبله فاشلاً أصبح رجل أعمال خيِّراً وناجحاً.

قلت: لنذهب للسلام عليه. قال: أو جاد أنت..؟! قلت: نعم.

قال: ولكن الناس سيظنون أننا نتملقه.

قلت: أنترك واجباً أخلاقياً خشية من كلام الناس؟

فهذا رجل عصامي ولا شك.. كنا نظن أنه لا يصلح لأن يرعى دجاجاً فإذا به يقلب كل التوقعات ويجعل من نفسه رجلاً مهماً.. وما وصل إلا على جسر من التعب والمشقة والكفاح..

إن النجـاح ليس النجـاح في الدراسـة والوصـول إلى المركـز فقط.. النجاح هو أيضاً النجاح في الحياة، وهذا في نظري يستحق الإكبار والتقدير.

وما أجدرنا أن نقدر صاحبه ونحترمه..

بُندقيّة أَبِي

في بيتنا القديم، حيث لم يبق هناك شيء، إلا الأشياء القديمة، كالباب الخشبي، وحلقته التي طال انتظارها في كثير من الصمت والاستسلام...

دخلت أتفقد الغرفه التي يقطنها: النسيان والعنكبوت، وجدت بندقية أبي معلقة في «خباها»، اقتربت منها، ثم تناولتها بعد أن غرقت يداي في الغبار. نفضت غبارها، وحللت رباطها، وأخرجتها، فإذا هي هي، آثار أصابع أبي قد أنحلت مقبضها، وآثار زنده واضحة على عاقبها... فلكتها فإذا آلتها سهلة مرنة. رائحة الزيت تنتشر منها. أبي كان يحب سلاحه، ويحافظ عليه محافظته على عينه.!! كان يزيت البندقية، ويمسح عنها الغبار، وحين يجلس لا يضعها على الأرض، وإنما يتربع ويضعها على رجليه! حملتها وذهبت بها معي، ثم أريته إياها وهو في سريره، حيث تعيقه رجلاه عن المسير، نهض بقلبه وببصره، وابتسم ابتسامة المنتشي، وهو ينظر إليها كأنه ينظر إلى عمره، وشبابه النضر، هذه البندقية التي طارد بها الصيد، وطارد بها الذئاب، وطارد بها ذئاب الرجال في توحيد هذا الوطن.

ها هي الآن وقد تقاعدت بعد أن تقاعد صاحبها، تقاعدت عن الضجيج، والحركة، والمطاردة، والصخب، لكأن هناك ألفة بين الأشياء وأصحابها..!! أشعر أن هذه البندقية ترفض معانقة كتف آخر، وزنادها يرفض أي أصبع آخر..!!

أحياناً تشعرك الأشياء الصامتة أنها تنطوي على كثير من الوفاء، وهو شعور إنساني يعكسه المرء على أشيائه التي تعاطاها، وتعامل معها. بل إنه أحياناً يجد حنيناً غامضاً إلى التعامل، والتعاطي معها، بل ويجد شوقاً إلى رؤيتها ما بين الحين والحين، وهذا الشعور تجاه الآخر الصامت ليس ناتجاً عن غريزة التملك، وإنما هو الحنين إلى الزمن. الحنين إلى تاريخيّة هذا الكائن، فلقد كان رفيقاً، وقد كان صديقاً، وقد كان آلة دفاع، وآلة هيبة...

أخذ والدي بندقيته وراح يقلبها بيديه الراعشتين، وكاد يحتضنها بل كاد يقبلها، راح يمعن النظر فيها ويهمس كأنه كان يستنطقها. بل هو يستنطقها فيقول: ماذا فعلت الأيام..؟ وكيف كانت تلك الأيام..؟ أين تلك الدروب؟ أين تلك الغزوات والفلوات..؟ أين ذلك الصيد؟ بل أين ذلك الشباب؟ لقد خانتني الأيام يابندقيتي ولم تخنك، ها أنت كما أنت، أما أنا فكما ترين، وهن عظمي، وخانتني قدماي، وهدت عمري السنون، وأفنت نضارتي عاديات الدهر... وإذا كان الدهر غداراً وخائناً فأشهد أنك لم

تخـونينني، ولـم تغـدري مـرة واحـدة، فلم تخطئي هدفـاً، ولم تروغي عن مقتل..

وانتابت والدي حالة من النشـاط، والاسـتفزاز، وبـرزت عينـاه في حـالة من التـوثب احـتشـد لهـا الـدم في وجـهـه.. وخيـل إليـه أنـه قـادر على النهوض، خيل إليه أنه قادر على حملها، ومصاحبتها. خيل إليه في هذه اللحظة أنه اسـتـعـاد شـبـابه، ورونقـه، وأصـبـح قـادراً على السير في الوهاد، والشعاب، ومطاردة الوعول، والذئاب.

لكنني أخـذت البنـدقيـة من يد أبي، وقبلت رأسـه، وأسـندته إلى وسـادته..

البَطَل

لن أحدثكم عن بطل تاريخي من أولئك الأبطال المغاوير والفرسان والقادة العمالقة، وليس عن بطل من أبطال التمثيل، ولا من أبطال الكرة الذين فاقت شهرتهم شهرة الأبطال الأفذاذ.

أبداً، فهذا البطل ليس معروفاً عند أحد.. ومع هذا فهو في نظري بطل.

كان زميلاً في المدرسة.. وكنا ننام وكان يسهر، وكنا نلعب وكان يكافح.. كان يتيماً وهو وحيد أمه الأرملة.. وكان بالرغم من صغر سنه يمارس بطولة الكفاح في توفير لقمة العيش لامرأة وحيدة مكسورة الجناح.

كان إذا خرج من المدرسة ذهب يعمل بالأجرة في المزارع، يحصد، ويحرث، ويرعى، ويمارس كل المهن التي تدر عليه شيئاً يدفعه إلى الحياة.. وكان حيوياً، فرحاً، سعيداً.. لا يتغيب عن المدرسة، ولا يهمل واجبه، ولم يرتكب هفوة في حق أحد. كان محترماً من المدير والمدرسين، والطلبة. وكان ماهراً في لعبة كرة القدم.. وظل اسمه لامعاً إلى أن تخرجنا وأخذ كل منا طريقه.. ولم أعد أراه أو أسمع أخباره.. فلقد أخذتنا شؤون الحياة في طرقاتها

المتشعبة، ولكنه ظل في الذاكرة نموذجاً للشاب المكافح، الصامد، الصابر المستبشر بالحياة والناس.

وفي إحدى المناسبات رأيت رجلاً مقعداً في عربة يدفع نفسه مع الناس.. خُيِّل إليّ أنني رأيت هذا الوجه، سألت عنه فقيل: إنه فلان.. زميلنا في المدرسة.. انتابتني حالة من الحزن والجزع.. وهرعت إليه، حييته. كاد ينهض من مكانه وأنا أعانقه.. وجدت نفسي مضطرباً أمامه لا أعرف ماذا أقول.. كيف أواسيه أو أعزيه.. ولكنه سبقني بابتسامة عريضة قائلاً: لا تحزن أنا بخير وعافية.. ما دامت الرأس سليمة فأنا بخير.. قالها ووجهه يطفح بالبشر والتفاؤل..

علمت أنه أُصيب في حادث.. وأنه أُحيل إلى المعاش.. ولكنه لم يستسلم، فتح مؤسسة وراح يديرها بنفسه، وراح يحقق النجاح تلو النجاح، يدير أعماله بمهارة، ويربِّي أولاده بامتياز.. انخرط في المجتمع.. وتأقلم مع حالته ومع الحياة.. بل ازداد حباً في الحياة والناس.. يحضر المناسبات، ويشارك في الاجتماعات في صلابة لا تلين، وقوة وعزيمة تشبه البطولة الخارقة..

بل هي والله البطولة الخارقة..

ألم أقل لكم إن صديقي هذا بطل..

وأظنكم ستقولون معي نعم إنه والله بطل.

غَـــدْر

كـان لدينا في المزرعـة ديك حـسن الصـوت كـديك «رَبَابَة» التي يقول فيها بشار بن برد:

رَبَابـةُ ربّـةُ البـيـتِ
تَـصـبّ الخَـلَ فـي الـزّيـتِ
لهـا عـشـرُ دجـاجـاتٍ
وديـكٌ حـسـنُ الـصّـوتِ

هذا الديك الأبيض الجميل ذو العرف الزمردي الأحمر كتاج ملكي.. كانت جدتي - رحمها الله - تغدق عليه بأصناف الحبوب والأطعمة؛ لأنها تعتقد أن أذانه يطرد الشياطين..!! فعاش منعماً مزهواً متبختراً في مشيته وكأن جده الأعلى ديك بني نمير الذي قال الشاعر فيه:

كـأنّ الديكَ دِيكَ بني نُمـيـر
أمـيـرُ المؤمنينَ على السـريّرِ

أو كأنه فارس يقود كتيبة إلى معركة كما قال الشماخ:

فِراخُ دجاجة يَتْبعنَ ديكاً

يَلِذنَ به إذا حَمَسَ الوغاءُ

هذا الديك الإمبراطوري غدر به ثعلب في لحظة نحسة وافترسه شر افتراس.. فلقد وجدنا ريشه ودمه تحت إحدى الشجرات، فبكينا وسالت دموعنا حزناً على الديك، وحزناً على الدجاجات اللواتي أصبحن أرامل، أيامى، لا معين لهن، ولا فارس لهن، وقد ظهر الحزن بادياً عليهن، فأصبحن عندما يتحركن، يتحركن بمهل، ولا يذهبن بعيداً ويجلسن متكورات، مكسورات القلب.. وشعرنا بتأنيب الضمير في كل ما حدث لهن ولوليّهن ذلك الديك الرائع.. لأننا ودون قصد كنا سبباً مباشراً في تلك الجريمة النكراء بكل أسف، ولكن ذلك كان عن حسن نية وطهارة قلب..

ذلك أن الثعلب المذكور كانت الكلاب قد طاردته وتحاوشته في إحدى الليالي لافتراسه، وتمزيقه، وضيقت عليه الخناق، وسدت عليه جميع السبل والدروب.. فلم يجد أمامه إلا أن يقذف بنفسه في بئر مهجورة، وظل بها أياماً وليالي يصيح، ويتوجع، ويئن، إلى أن مرَّ به شيخ رقيق القلب من الذين فطر الله قلوبهم على الرفق والرأفة بالحيوان، مع أنه - وأكاد أقسم على ذلك - لم يقرأ عن جمعيات الرفق بالحيوان، ولم يسمع عنها شيئاً.. المهم أن هذا الرجل الطيب القلب أجَّر عاملاً لإخراج الثعلب من غياهب الجُبّ،

ونقده عشرة ريالات. حين أخرجه ووضعه تحت جدار قريب من البئر، وكان حين أخرجه هالكاً من الجوع والعطش، لا يقوى على الحركة.. كان مغمض العينين، ويتنفس تنفساً بطيئاً، فتحلقنا حوله نقدم له الماء والغذاء، وبنينا له ما يشبه البيت، وصرنا نغدق عليه بما يتبقى من طعام، بل كنا نختلس بيض دجاجات الديك الأبيض نكسرها له طرية شهية، ونضعها بين يديه، ويوماً بعد بعد يوم أخذ يسترجع عافيته، وكنا نأنس به ويأنس بنا.. كنا مأخوذين ببريق عينيه العسليتين اللتين تبدو عليهما الطيبة والضعف والانكسار.. وبعد أيام صار يتحرك ويدور في بيته الصغير.. وذات يوم فتحنا له الباب فأخذ يعدو ويقفز متنعماً بالحرية والعافية، وبقدر ما فرحنا بعافيته بقدر ما حزنا على فراقه، فقد ألفناه وألفنا نظراته الطيبة الضعيفة المنكسرة..

ومرت مدة نراه من بعيد وإذا اقتربنا منه هرول أو أخذ يعدو.. ثم توحش وصار يبتعد، فلا نراه إلا عند غروب الشمس في أطراف المزارع وعند البرك.. ونسمع صوته عندما يهجم الظلام..

وذات يوم وبينما كان ديكنا يمشي متبختراً يقود سربه في طمأنينة وأمان، انقض عليه ثعلبنا الطيب كالشهاب واختطفه من بين خليلاته اللاتي كنا نسرق بيضهن له..!! فافترسه وولغ في دمه ولم يترك منه إلا ريشه الناصع الجميل.

وصدمنا صدمة وحشية من ذلك الثعلب الضعيف ذي العينين الحلوتين والقلب الماكر الخبيث.. وتعلمنا درساً في الغدر واللؤم يفوق كل ما يتعلمه غيرنا من محاضرات وكتب عشرات المرات..

الْغَـــيـث

في عـتـمـة الليل وقـد أحـاط الـسـحـاب الهـابط مع المطـر بالنخـيل والبيـوت فـأصبح الكون ضبـابـاً ليلياً، وحفيف الوادي والتـلاع المنحدرة من الجبل تطرب الأرض وتهزها حتى ليخيل إليك أنها ترقص في احتشام.

كان أبو حمد يدق باب جاره «أبو محمد»:

«السيـل عليكم مبـارك».. «جعله الله نـازلاً بالبـركة».. «النخيل ارتوت والمسابيل عبّرت، والوادي أبشرك ارتفع فوق المطاوي».

يرد أبو محمد:

تفضل يا أبو حمد تدفّ.. الدنيا برد..

يدخل أبو حمد وهو يردد:

يالـلـه يابـانـي الحَـرَمْ في تهـــــامَـهْ

كَـشّــاف ضــرّ أيوّب فـتّـاحَ الابْـوَابْ

ويالله عَـبـيـدك يَرتجُـون السَّــلامـةْ

بالمزن تَسـقِي ديارهُـمْ غُبـر الاشْعَـابْ

حطب السمر يتلظى في الوجار.. المرازيم مستمرة النشيد كلما خفت سحابة هطلت أخرى.

فناجين القهوة تدار.. وتعقبها فناجين الحليب بالزنجبيل.. ثم بادية «الحنيني» الغارقة في السمن..

يضيء برق تنشق له العتمة، يعقبه رعد له زلزلة.. يقول أبو حمد: اللهم على الوهاد وبطون الأودية.. يشع الدفء في النفوس. وتسري في الخواطر بهجة نادرة الحدوث.

هناك فرح قاطن في كل قلب.. هل رأيتم فرحاً يقطن القلوب..؟ نعم، ذلك النوع من الفرح.. الفرح المرتبط باستمرار أسبابه.. فهدير الوادي، وحفيف التلاع، وإيقاع الميازيب، وهتاف المطر، يجعل الفرح راسخاً في القلب فيتحول المرء إلى كتلة من النشوة.. يطير النوم عن الأعين، وتظل الأسماع تصغي لإيقاع الحياة.. تفيض في المكان رائحة لها عبق الطين والماء والحياة..

إنها حالة مخاض.. مخاض ولادة. العشب، والربيع والسنابل، والارتواء وموسم الفراشات.. سوف ترتوي التربة، ويتفجر في الطين نوى الحياة. سوف تمتلئ المخازن الأرضية بالماء.. ستنتعش الحقول.. وتلبس الرياض، والفياض حللها النادرة. سيتكاثر الرعاء، والحداء والغناء.. ستأتي طيور مهاجرة تشارك الأرض احتفالها وعرسها النباتي الجميل.

يقول أبو حمد: اللهم اجعلها سنة خير وبركة.. «لنا سنين ما شفنا مثل هذا الحيا»..

يرد أبو إبراهيم: ما شدة إلا عقبها فرج.. الله لطيف بعباده، ودوابه، وأشجاره.

ويؤذن الفجر والسماء تمطر، والوادي يزداد فيضاناً والتلاع تزداد دوياً وتدفقاً، والأرض تفيض ولا تغيض..

لكن المؤذن كان ينادي: «الصلاة في الرحال»..! فيؤدي القوم صلاتهم في بيوتهم ويواصلون رحلة السهر ليستمتعوا ببواكير النور تفيض على واديهم المسحور بالماء والانتشاء، والبشرى بعام خصب فيه يغاث الناس وفيه يفرحون..

الصَّليب

في إحدى القرى الصغيرة جداً التابعة لمنطقة الرياض حدثت حكاية طريفة رواها لي أحد أبناء هذه القرية قال:

افتتحت المدرسة الابتدائية في قريتنا في بداية الثمانينيات الهجرية بعد تنافس مع بعض القرى المجاورة، حيث فازت قريتنا لزيادة في عدد أفرادها تقدر بثلاثة أطفال، فصارت القرى المجاورة تابعة لمدرستنا يأتي أبناؤها كل صباح.. وكنا نفخر بذلك ونعده انتصاراً عظيماً في تاريخ القرية..

افتتحت المدرسة بعدد قليل من المدرسين، ثم تواردت الأنباء أن مدرساً «وافداً» من بلد عربي سيأتي إلى مدرستنا، قال: وكنا نعتبر ذلك مفخرة لنا ولقريتنا أمام القرى المجاورة التي باءت بالهزيمة والفشل أمام نجاح وانتصار قريتنا المبهر.. وتأكدت الأنباء حول مقدم هذا المدرس، فتطلعت القرية إلى وصوله..

وذات يوم خرجت القرية عن بكرة أبيها تتطلع إلى سيارة البريد التي سوف تقل الأستاذ الجديد، وما إن وصلت السيارة حتى

تحلق حولها الجميع كباراً وصغاراً، وأخذوا يحيون المدرس، وينقلون عفشه ومتاعه إلى بيت استأجروه وفرشوه له وأثثوه دون مقابل.. ثم أخذوه إلى بيت شيخ القرية حيث أقيمت وليمة كبيرة على شرفه.. وكان أهل القرية قد أقسموا عليه ألا يطبخ في بيته، وأنهم سوف يتولون أكله بالتناوب كل يوم عند شخص.. فطوراً، وغداء، وعشاء، طيلة العام..!!

بات المدرس تلك الليلة قرير العين، مذهولاً بهذا الكرم وهذه الأريحية التي لم ير ولم يسمع بمثلها.. فلقد وجد بيتاً مفروشاً، وأكلاً مضموناً، وتقديراً يفوق كل تصور وتوقع..

وفي اليوم التالي.. وبعد صلاة الفجر مباشرة، أخذه الذي وقع عليه الدور إلى بيته وقدم له وجبة الإفطار، وكانت عبارة عن خبز البرّ المنقع في السمن، وكانت تلك المنطقة مشهورة بزراعة البر، وأخذ المضيف يحثه على الأكل احتفاء وإكراماً.. ثم أتبع ذلك بطاسة من اللبن الرائب..

بعدها توجه المدرس إلى المدرسة، وقد أحس بعطش شديد بعد هذه الوجبة الدسمة الغريبة عليه.. فصار يطفئ عطشه من ماء القربة.. وجاء وقت الغذاء بعد إغلاق المدرسة، حيث وجد مضيفه الكريم ينتظره عند بابها.. وبعد تناول القهوة والترحيب الحار، رميت السفرة وجيء بصحن مليء بالجريش المغرق في السمن. أخذ

الأستاذ يأكل وقد استطاب طعم الجريش الذي يذوقه لأول مرة، ويستجيب أيضاً لرغبة مضيفه الذي أخذ يلح عليه ويقسم الأيمان المغلظة أن يستمر في الأكل. أكل، وأكل، حتى لم يبق متسع.. لكن المضيف بادره بغضارة من اللبن الخاثر الطافح بالزبد، قائلاً له: إن هذا النوع من الأكل لا بد أن يتبع باللبن.

شرب المسكين في استسلام وإذعان قهري، فهو أمام هؤلاء الطيبين لن يستطيع أن يقول: لا، مهما كلفه الأمر.

كاد بطن الأستاذ أن ينفجر، ووجد صعوبة في القيام والقعود، بل وجد صعوبة في التنفس.. وكان بديناً ملحماً فأخذ يلهث ويتحرق ويفتح أزرار قميصه، ويحل حزام بنطاله.. وقبل أن يضع ظهره على المسندة ليرتاح قليلاً، أذن مؤذن الظهر، وكان الوقت حاراً في نهاية الصيف، والمسجد يقع في طرف القرية.. خرج مع مضيفه إلى المسجد وهو يلهث من الانتفاخ ومن حرارة الشمس التي تلهب دماغه.. ولم يكد يصل المسجد إلا بجهد جهيد وعناء ومشقة، وقد أحس بغثيان واضطراب في تنفسه، ودقات قلبه.. وما كاد يدخل في الصف مع المصلين حتى أصيب بإغماء ووقع.!!

قطع المصلون صلاتهم وتحلقوا حول مدرسهم، وقد أذهلهم وقوعه.. فدلقوا عليه قربة من الماء فتنفس قليلاً، وكان قد شحب وجهه واصفر.. ولكنه لم يستطع النهوض، وقال بعض القوم: ربما

أنه مصروع «أي به صرع».. فصار الإمام ينفث على صدره ويقرأ في أذنيه.. ولكن لا فائدة فقد انتابته حالة الغثيان، والدوار من شدة الضيق، واكتراب البطن الذي تحول إلى كرة من الأكل والهواء المضغوط.. وحاروا في أمر مدرسهم، ثم ذهبوا إلى شيخ كبير مقعد يستشيرونه في الأمر، وكان لديه شيء من الاستطباب الشعبي، فقال ربما أن الرجل «مغتث» من كثرة الأكل وعليكم أن تكووه في بطنه عاجلاً .

تراكضوا وأوقدوا النار وقد أحموا محشاً «منجلاً» حتى صار لونه أزرق، ثم كشفوا عن بطنه وكواه أحدهم فوق سرته "بظهر المحش" طولاً وعرضاً، فصرخ الأستاذ مرتين أو ثلاثاً.. وقد تعارك صوته مع رائحة الشياط في هواء المسجد الحار، ثم همد وصار يئن أنينا مفجعاً، فقال الإمام: يمموا صاحبكم فالظاهر أنه سيموت..

من حسن حظ المسكين أن سيارة عابرة مرت بالقرية فاستوقفوها، وحملوا مدرسهم إلى الرياض فذهبوا به إلى المستشفى المركزي حيث تم علاجه وإنقاذه بأعجوبة.. غير أنه حين صحا إلى نفسه وجد في بطنه كياً ضخماً على شكل صليب فصار يولول ويعول ويصيح وهو يقول: يا ناس خافوا الله دخلت قريتكم صحيحاً فخرجت مريضاً، ومسلماً فأصبحت صليبياً.. لا والله لا أذهب إلى قرية "الجريش" هذه أبداً.. أو ردوني إلى بلدي..

زَوَاج

للزواج لدينا منذ ثلاثين عاماً مظاهره الخاصة وأسلوبه الخاص وفقاً لتحولات الدنيا والناس واستفادتهم من متغيرات الحياة من حولهم، فلم تعد آنذاك مناسبة الزواج مقصورة على أهل البلدة أو القرية، فقد يأتيها مدعوون من المدن التي حولها لتوفر وسائل النقل وتعبيد الطرق. وفقاً لذلك فقد زادت مؤونة الزواج وزادت تبعاته ودخل الأمر حتى في تفاصيل مأدبة الزواج من الكثرة والوفرة والتنوع إلى درجة التنافس بين زواج وزواج حتى في المهر، وأصبح المهر مهماً.. فالتي تتزوج موسراً ليست كالتي تتزوج فقيراً، والذي يبعث مع «الجهاز» عقداً ثميناً ليس كمن يبعث عقداً عادياً.. وربما دون شعور اجتماعي أثر هذا «الحراك» في أسلوب الزواج نفسه... وراجت تقاليد وأعراف، ومظاهر، وعادات فيها شيء من التغيير إن لم نقل التعقيد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وهذا ما جعل المنافسة أمراً طبيعياً على مذهب أن الناس مدفوعة إلى البحث دائماً عن الأفضل.

وذات مرة حدثت مناسبة زواج في إحدى البلدات المجاورة للرياض، وكانت بين هذه البلدة والبلدة المجاورة لها منافسات،

ومناكفات، ومداعبات شعرية، يتبادلها الطرفان في المناسبات المتعددة كالزواج مثلاً أو كبناء المدرسة أو كمباريات الكرة وما فيها من منافسات. والجميل أن هذه المحرضات، والمراشقات لم تصل إلى حد الشحناء أو الكراهية، أو القطيعة، بل تجد أصحابها أقرب إلى بعض في المناسبات الكبيرة وتجدهم كعائلة واحدة، ويداً واحدة إذا لزم الأمر كالمطالبة ببناء سد، أو طريق، وأي شيء فيه منفعة مشتركة..

وتجد أن أحدهم إذا زار بلدة الآخر أخذوه بالأحضان وأكرموه إكراماً شديداً، وهم في الواقع يمثلون نسيجاً واحداً حتى وإن اختلفت القرى، فبعضهم أقارب بعض، بل نجد في القريتين أناساً من عائلة واحدة. وهذا كما قلت هو الذي جعل ما يدور بينهم هو من باب المزح والمرح، والدعابة، والمشاكسة الشعرية أقرب منه إلى الجد أو الصراع الحقيقي.

ويقال: إن شخصاً خطب بنت شخص من بلدة مجاورة.. وحدد موعد الزواج، وجاء أهل العريس بسياراتهم «الونيتات»، و«اللواري»، واستقبلتهم بلدة أهل العروس استقبالاً حافلاً، فأخذوهم من بيت إلى بيت لتناول القهوة والفاكهة، وإظهار الإكرام بالطيب الفاخر -العود - وبالسماحة والمؤانسة في الحديث.. إلى أن جاء وقت العشاء.. حيث بسطت السماطات في مكان خاص بذلك، وتقدم

أهل المعرس إلى بيت العرس يستقبلهم أهل العروس وفي أيديهم المباخر وقوارير الطيب، ممزوجة بكلمات الترحيب..

وتعشى القوم وانصرفوا، منهم من عاد إلى قريته ومنهم من بات عند أقاربه أو أصدقائه.. وكان من عادة أهل تلك البلدات في ذلك الزمان أنه بعد صلاة العشاء، يأخذ أبو العروس العريس إلى غرفة خاصة يجلس بها القاضي أو إمام المسجد وذلك لعقد القران - الملاك - هكذا جرت العادة... وسارت الأمور في موكب الفرح والانشغال وفقاً لمجراها. واقتاد والد العروس العريس إلى غرفة عروسه، وارتفع صوت طبول المغنيات في ساحة الدار، والتفت النساء بدفوفهن حول المعرس، وكن وراءه يغنين ويهللن، ويدندن فيما يشبه الزفة حتى واره باب غرفة عروسه.. وظل الغناء على أشده. وبعد فترة أطل العريس من نافذة الغرفة، وأخذ ينثر على الحفل وعلى المغنيات حفنات من الريالات الفضية من نافذة غرفته، وهي طريقة تقليدية تدل على كرم المعرس، كما أنها مكافأة للمغنيات «الطقاقات».. وكانت سهرة من أجمل السهرات استمرت إلى قبيل الفجر رقصت فيها الفتيات، وغنت المغنيات، والزوج وعروسه في مقصورتهما.. وعند الفجر هدأ كل شيء. وفي المسجد قابل القاضي والد العروس وهو يعاتبه حيث إنه فضل عليه الإمام في عقد الزواج. وجن جنون الأب، وكاد يفقد عقله وشعر أنه وقع في كارثة، وأن فضيحة سوف تعكر الزواج كله..؟ فقد نسي أن يعقد

الزواج أصلاً!! والذي حصل كله كان بلا قران شرعي..! وتحرك أهل العروس وذهبوا وأخرجوا المعرس وهو لا يزال في ثياب النوم، وركض الوالد لاحقاً القاضي إلى بيته، ثم تم عقد القرآن في حالة من الخجل والكدر من الجميع.. وقد أحيط ذلك كله بالتكتم والسرية.. ولكن وما كادت الشمس تشرق حتى كان الخبر عند أهل القرية، بل والقرى المجاورة، فتعالى الضحك وساد الهرج والمرج وزيد في الكلام وتدخل الخيال ونسجت أقوالٌ وأساطير حول هذا الزواج الذي لم يعقد له إلا بعد صلاة الفجر أي بعد أن وقعت الواقعة وانتهى كل شيء..!! وصارت المسألة شماتة جديدة في تاريخ القرية..

وقبل غروب الشمس كانت قصيدة قد انتشرت يهمس بها فتيان وفتيات القرية..

مِنكْ شدّه

عندنا في البلدة أحد المزارعين اسمه «حسين»، وكان رجلاً طيباً كريم النفس، مزاحاً يحب مداعبة الكبار، وكانت غرفته في بستان، بابها على الشارع وقريبة من المسجد.. وإذا خرج بعض «الجماعة» من صلاة العشاء مروا عليه يشاهدون التلفزيون.. فبعضهم يرغب في مشاهدة المصارعة، وبعضهم يحب مشاهدة المسلسلات، وآخرون يحبون أن يروا بعض المغنيات وهن يرقص ويدبكن!!

وكان أبو سالم وأبو حسن مغرمين بمغنية تخرج ما بين الحين والحين، فإذا عرفا أنها سوف تغني تلك الليلة حضرا لمشاهدتها.. وكان «حسين» الرجل الطيب يعمل للجميع الشاي، فإذا أمضى القوم ساعة أو ساعتين غادروا إلى بيوتهم. وذات يوم عُرض مسلسل لبناني جديد شارك في بطولته بعض من الصبايا الجميلات اللواتي كن يمثلن أو يرقصن أو يغنين. وتأثر الرجلان أبو سالم وأبو حسن تأثراً كبيراً، وصارا ينتظران بفارغ الصبر وقت المسلسل. وبينما هما مستلقيان ذات يوم عند باب أبي سالم مستغرقان في الحديث عن

المسلسل، وفتياته، وصباياه الجميلات.. قال أبو سالم: «والله يا أبو حسن إن حياتنا راحت بلاش»!! ورد «وشلون يا أبو سالم؟!» قال: «شفت البارح.. ها البنات المزايين اللي في التلفزيون مثل الحوريات.. بَيَاضٌ وَشَعرٌ وطُولٌ وحَكي زين، وعلوم زينة.. ساق الواحدة منهم كأنه قطعة رخام.. وحنا متزوجين جنٌ، شهبٌ، لهبٌ، الوحدة منهم كأنها عنز..».

رد أبو حسن وهو يعبث بالحصى بين أصابعه: «صدقت والله يا أبو سالم.. راحت حياتنا لا اسَتَرحَنا ولا تَهنِّينا، ولا شَفَنا اللي شافوه الناس. كدّ ونكدّ، ومقابلة عِجْز.. الناس تروح وتجي، وتسافر، وتتفرج، وحنا الواحد ما يتعدى زلفة بابه»..!!

ضحك أبو سالم وقال: «ويش رأيك نسافر....؟ منك شدة على السفر؟».

ضحك أبو حسن وقال: «بالحيل.. مني شدة.. لكن أنت..؟! والله ما تخليك أم سالم تتحرك شبر، أو تخطي خطوتين»..

رد أبو سالم وقال: «هذاك غيري يالرخمة[1]»..

وجلس الاثنان فجأة وتقابلا وجهاً لوجه وهما جادان، وقالا بلسان واحد: «صحيح ليش ما نسافر»؟!

(١) الرخمة: الضعيف. كناية عن طائر الرخم.

حك أبو سالم أذنه وقال: «أجل السفر سهل..؟ السفر يبي فلوس، ومصاريف».

ضرب أبو حسن صدره وقال: «كل شيء علي بس اعزم»..

ولكن أبو سالم استطرد وقد أهمته الفكرة حقيقة وقال: «بس الموضوع ما هو سهل حتى لو توفرت الفلوس.. المسألة فيها جوازات، وتذاكر».

قال أبو حسن: «اسمع إذا عزمت، وصملت[1] حقيقة فقل لي، نعطي «ولد بريه» الفلوس وعرقته ويصلح لنا كل شيء»..

وتابع وهو يضحك قائلاً: «مخدوم يا أبو سالم.. بس منك شدة[2] صيح.. وإلا حكي مجالس»..؟

فقال: بل «بي شدة ونصف وهات يدك»..

ولما أراد أن يمد يده فاجأهما وقوف أم سالم فوقهما والتي كانت طيلة الوقت تستمع إليهما!! ثم صاحت وهي تحثوهما بالتراب وتقول: «قوموا ياشياب الشياطين لا رحم الله هالوجيه.. حنا الشِّهبْ اللِّهبْ اللي مثل المعزا»؟

(١) صمل: عزم.
(٢) الشدّة: العزيمة والهمة.

فـالتـفت أبو حـسن إلى أبو سـالم وقـال: هآه.. مـعـزّم.. منك شدّه..؟

وكان أبو سالم قد سقط مغشياً عليه من الضحك ومن الخوف أيضاً.

الأُضحيـة

أرجو ألا يغضب علي أحد من هذه الحكاية لا رجالاً ولا نساءً ولا أبناء، فما أوردتها إلا للتسلية والخروج من حالة الغم والكآبة التي تظلل بسحبها الداكنة على منطقتنا المنكوبة، وتمطر بحممها قلقاً ورعباً نارياً يكاد يشعل الأرواح والقلوب، فحالت بين أصحاب القلوب الرحيمة وبين الابتسامة، ومهما يكن فحري بنا أن نجد ملاذاً نهرب إليه من همومنا ولو بمثل هذه الحكاية التي قد تكون لاذعة لفئة من الناس، على أن في كثير منهم رحابة صدر وسعة بال تجعل من هذه وأمثالها مجالاً للتندر وليس مجالاً للسخرية أو الإيذاء.

ولقد كان الأقدمون في آدابهم يسلون أمراءهم وقوادهم وشعوبهم بألوان من المزاح والتندر والحكايات حتى في أشد الظروف وأحلكها.. فمن ذلك مثلاً ما يروى عن خالد القسري - أحد ولاة بني أمية - حينما وقف يخطب في جنوده يحرضهم على القتال، ففاجأه جيش العدو محيطاً به فاضطرب وقال: أطعموني ماء.. أطعموني ماء..!! فضحك جنوده حتى وقعوا على الأرض بالرغم من أن جيش الأعداء قد أحاط بهم، وفي ذلك قال شاعرهم:

وقُلتَ لَمَا أصَابَكَ أَطْعِمُوني

شَرَاباً ثُم بُلت عَلَى السَّرِيرِ

ويبدو أن هذا الأمر متوارث عن بعض قادتنا فما أكثر البوالين عند ذكر العدو.

المهم أن خالداً لم يغضب من الشعر، بل فرح وسره أن رأى جنوده يضحكون وهم في قلب المعركة.

إذاً فلا مانع من الضحك في قلب هذه العواصف التي تحيط بنا وبأوطاننا..

والحكاية تقول: إن رجلاً توفيت زوجته إثر لدغة عقرب.. ولا شك أنها عقرب دخيلة.. فعقاربنا - بحمدالله - تلدغ ولا تميت كما تميت عقارب إصفهان على ذمة الجاحظ أو كعقارب جنوب أرزونا والتي لو لدغت ثوراً بحجم دبابة أمريكية لمات على الفور.

على كل حال ليس مهماً الآن الحديث عن أصل وفصل العقرب.. المهم أن الرجل حزن عليها حزناً شديداً وضاق صدره، وضاق بيته بل ضاقت الدنيا في عينه بعد فراقها، فقد قضى جل عمره معها، متعايشين مع تقلبات الدهر والأيام، وقد أنجبا أولاداً ذكوراً وإناثاً، وقد ترك موتها في نفسه فراغاً هائلاً بسبب تلك الألفة والمعاشرة الطويلة..

ولما رأى الأبناء حالة والدهم رثوا له وحاولوا التخفيف عنه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يملؤوا ذلك الفراغ الذي تركته أمهم، فهم حين يصبحون يذهبون إلى أعمالهم وتأخذهم شؤون وشجون الحياة كغيرهم من الناس، ولما رأوا حالة والدهم تسوء قرروا أن يقنعوه بالزواج، وتردد كثيراً في قبول الفكرة ولكن بعد إلحاح الأبناء والبنات قبل ذلك، ويبدو أنه وفق في زواجه إلى حد بعيد، فقد تغيرت حياته ورأى حياة جديدة، هنيئة، مليئة بالحب، والسعادة.. ووجد في زوجته الجديدة خصالاً وصفات ما كان يتوقعها أو يطمع فيها وهو في مثل هذه السن والمرحلة من العمر.. وانصرف إلى حياته الجديدة انصرافاً كلياً، وقد كانت زوجته الجديدة حاذقة فغيرت أثاث الغرفة، وطلاءها ووضعت لوحات بديعة على الحيطان، وأصبحت الغرفة تموج برائحة العطور، والأطايب، وكانت ترفع معنوية زوجها فتصبغ شعر رأسه ولحيته وتقول له: أنت زين الشباب.. أنت أنشط من بعض أبنائك. وبذلك أعادت إليه شيئاً من ثقته بنفسه، بل أعادت بعض شبابه، ونضارته، وصحته، إلى درجة أنه صار يشعر بخفة، وقوة، فتراه يقفز درج المنزل قفزاً، ورأى أصحابه ذلك التغير الطارئ في حياته وفي بدنه، فمنّتهم نفوسهم بعض الأماني التي لا يستطيعون إبداءها.. ونسي زوجته القديمة نسياناً تاماً، وقد آلم الأبناء هذا النسيان واعتبروه نوعاً من أنواع الجحود، ولكنهم لم يحاولوا

إفساد متعة والدهم، واستقراره النفسي، وإن غاظهم ذلك وأثر في نفوسهم.

وذات يوم وكان الوقت قريباً من عيد الأضحى تذكروا والدتهم، وترحموا عليها وكيف أنها مضت إلى رحمة الله وكانت في مثل هذه الأيام من كل عام تستعد لاستقبال العيد بالابتهاج والفرح، وها هو العيد قادم كأول عيد يمر على يتمهم دونها.

واقترحوا على والدهم كشيء من الوفاء لوالدتهم أن يشتري لها أضحية لإحياء ذكرها ولينال الأصدقاء والفقراء من أجر الأضحية والدعاء لوالدتهم.. فوافق الأب على هذا الاقتراح وفرح الأبناء بموافقته، فهذا يعني أنه لا زال في قلبه أثر من محبة ووفاء لها. وفعلاً ذهب الوالد إلى السوق وجاء بكبشين أقرنين سمينين، فلما رآهما الأبناء هللوا وكبروا لهذا الوفاء، فكانوا يأملون في أضحية واحدة وإذا بالأب الوفي يجلب اثنتين، فقالوا بكثير من السرور والغبطة والشكر والوفاء للوالد الوفي: كان يكفينا منك لأمنا أضحية واحدة..!!

فقال: نعم.. واحدة لأمكم.. أما الأخرى فهي للعقرب التي لدغتها..!!!

غَطيطْ

ذات يوم في مدرستنا الابتدائية، كنا نتراشق بالطباشير، والألفاظ الصبيانية في الفصل الدراسي..

وكان الأستاذ «طه» ببدنه المترهل، ووجهه المتهدل، وبطنه المندلق، المنحدر كقربة ضخمة يغط في نوم عميق.. كانت رجلاه سائلتين نحو الأرض، ورأسه الضخم مائلاً على كتفه الأيسر.. ويده اليمنى قد تراخت فسقطت منها الخيزرانة منسدلة على فخذه..

وكان الهواء يخرج من شدقة المائل فيحدث شخيراً وصفيراً.. فإذا تعالى الشخير استيقظ ومسح شدقه بلسانه، وفتح عينيه المثقلتين.. ثم أطبقهما ليعود إلى صفيره وشخيره..

كرسي الخيزران الخشبي تحته يئن ويصرصر كلما تحرك أو اهتز..

هذا هو طبع الأستاذ «طه» حينما يدخل الفصل يصرخ «العريف»: قيام.. فيتقافز الجميع وقوفاً.. وحين يستقيم الفصل قائماً يؤشر الأستاذ بيده ويوميء برأسه: قعود.. فيقعد الجميع في شيء من الجلبة وعدم الانتظام..

يبدأ الأستاذ بشرح الدرس وقد أمال نصف جسده نحو السبورة، ورأسه يتحرك باتجاه الطلبة تارة، وباتجاه السبورة تارة أخرى.. مستعيناً بالخيزرانة على تحديد الأسطر، والجُمل. كما يستعين بها أحياناً على تهدئة الأشقياء حين يلسع بها أكفهم الناعمة..

كان يقضي قرابة الخمس عشرة دقيقة في الشرح، ثم يجذب الكرسي ويجلس.. ويبدأ تصحيح «الكراريس» وقد وضعها على كرسي أمامه.. فإذا أكملها نهض «العريف» وفرقها على الطلبة..

«افتحوا الكتب واقرؤوا درس اليوم» !! يصدر الأستاذ «طه» أمره ثم يدخل في مرحلة الغطيط..

* * *

حينما أطل المفتش برأسه من باب الفصل لم ينتبه الأستاذ طه!!

صمت الطلبة وانحشروا في أماكنهم ودخل المفتش -عثمان- والأستاذ في سباته..

نظر المفتش إلى الطلبة ثم وضع سبابته فوق فمه طالباً الهدوء والسكوت..

وقف على رأس الأستاذ. ثم انحنى قليلاً منصتاً إلى الصفير والشخير..

اعتدل في وقفته. وحدق في السقف.. ثم عاد ينظر إلى وجه الأستاذ. زم شفتيه والتفت يميناً وشمالاً ثم تناول قطعة من «الطباشير» وكتب على السبورة:

«صح النوم يا أستاذ طه»!!..

«إذا قمت من نومك فقابلني في غرفة المدير»..!!

خرج المفتش فهاج الفصل وتصارخ الصبية..

فتح «طه» عينيه المثقلتين مستغرباً هذا الضجيج وهذه الفوضى..

نبهه العريف إلى ما كُتب على السبورة!!

قرأه، ثم فرك عينه، وقرأه مرة أخرى..!!

قال الأستاذ «طه»: «من الحمار الذي كتب الكلام ده»..؟

رد الطلبة بصوت واحد: كتبه المفتش عثمان..!

الأُستَاذ

أستاذ تحيط به المهابة.. حين يدخل الفصل يصمت الجميع، وحين يبدأ الشرح ينصت الجميع. وإذا نظر نظرة واحدة سكت كل من تسول له نفسه فعل الشغب أو الحركة. كل الطلبة يخافونه إلى درجة الرهبة، علماً بأنه لم يحمل العصا ولم يضرب أحداً بل لم يرفع صوته على واحد منهم.

إذا بدأ في شرح الدرس أخذ الجميع معه.. شدهم إليه.

كان فصيح العبارة، واضح البيان، سلس الأسلوب.. غزير المعرفة.. يضع المعلومة بإتقان كما يضع البنَّاء اللبنة فوق أختها.. كل كلمة في مكانها.. وكل جملة تعطي مدلولها بوضوح. لا يسرف في الحديث ولا يثرثر، ولا ينقص فيه.. بل يفصله على مقياس المادة وكأنه مهندس يستعمل القلم والمسطرة.

لهذا فهو ينهي الشرح في نصف المدة، والنصف الآخر للحوار والأسئلة، ثم يخرج وقد تأكد بأنه وضع المعلومة في أذهان الجميع كما يضع البستاني الشتلات في أماكنها.

التلاميذ وبالرغم من صعوبة المادة يفهمونها بسهولة.. ويتقنونها بعفوية، ولا يشعرون تجاهها بنفور أو تعقيد.. ولهذا فهم لا يراجعونها في بيوتهم.

الغريب أنه لا يستعمل دفتر التحضير.. وحين سأله المفتش عن هذا الدفتر أشار إلى طلابه وقال: هؤلاء هم دفتري. وأصر على أنه لن يُحضّر ولن يحمل معه ذلك السجل الطويل العريض.

لا يجتمع بالمدرسين إلا مرة واحدة في الفسحة الطويلة حين يتناولون الشاي.. وهو قليل التحدث كثير الإصغاء. وفي فراغه من الحصص يمضي وقته في المكتبة.

قال له المدير ذات مرة : إنه يرغب في أن يشاركهم في سهراتهم والجلوس معهم، فاعتذر لأنه لا وقت عنده وأسرها المدير في نفسه.

ذات يوم تعطلت سيارة المدير وذهب بها إلى الورشة.. أوقفها وجلس ينتظر.. وحينما أراد استلامها وجد مهندساً يتولى أمر الفحص والإصلاح. نظر إليه بدهشة.. لم يصدق وصاح به: أستاذ صالح.

مَرثيّة قَرية

تأخذني إغفاءة حلم لذيذ فأراني أستلقي تحت نخلة باسقة من نخيل قريتي، يتدفق الماء العذب من تحتها، وتحرك هامتها ريح الصيف تنوس بأعسبها وظلها فتساقط رطباً جنياً عذباً شهياً تذوب الروح لرائحته.. آه لذلك الزمان، وآه لتلك الأيام ما أروعها حينما كانت، وما أروعها حين تزور الذاكرة فتنقش في الخواطر رائحة عبقة من ذلك الماضي الجميل..

قريتي لوحة رسمها الله في حضن الصحراء تزدهي بالاخضرار وبالأناقة والجمال.. بساتينها كانت مهرجانات للطيور والفراشات والروائح الزكية والنفحات المحملة بالأرج والبرودة العذبة..

قريتي أي كنز في الذاكرة يسعفني في حالة الإبحار في هذا العالم المتشابك بالأزمات والعقد والمحن..؟

نهارها أهازيج عمال.. واجتناء ثمار، وغناء طيور، فهي دوماً تعج بالنشاط، ذلك النشاط المليء بالفرح والمرح والقوة.. كانت مسارح خيال، ومسارح أغنام.. وأفياء ظليلة، وحياة عذبة رخية،

ليلها إغفاءات البساتين، وأحاديث السمار، ومناجاة القمر. القمر يحنو على قريتي فيظللها بوهجه الحالم، فتراها سابحة في ضوئه البلوري.. كخاطرة جميلة في ذاكرة صبية عذراء.

ياقريتي علمتني أن الوطن ليس هو الذي تحل به وتسكن فيه، وانما الوطن هو الذي يحل بك ويسكن فيك.. فتحمله في حقائبك وأمتعتك وتحت أهدابك، وفي مفاصل قلبك..

فآه يالقريتي من عذابات المدينة، وعذابات الرحيل.. وآه يالقريتي من عذابات الأيام الخوالي.. أين رائحة التمر والرمان والنعناع.. أين الماء العذب النمير الذي يطفئ غلة الصادي..؟

أين رائحة القهوة، والبخور، وصوت النجر..؟ أين برك الماء، والجداول التي لا تكف عن الغناء..؟

أين أعشاش الطيور على هامات النخيل وبين فروع الأثل وفوق أغصان التين...؟

اين السمر والسمار..؟ أين الأحاديث على الرمل البارد..؟ أين القمر بضوئه الحاني الشفيف يعزف موسيقاه الأزلية الخلود فيصغي الوجود للقرى الوادعة لوعة في ذاكرة الوجدان، وللحياة البسيطة رهافة ورفاهية كذكرى البساتين في ذاكرة العصافير، وكذاكرة الحقول لشمس الربيع بعد ليلة المطر..؟ ما أحب وادينا للسيل والمطر.. هو الآن مستوحش بسبب أشواك العطش والعجلات الشرسة، والإهمال

الشرس.. فلماذا تشوهت فأصبحت كوجهٍ مجدور..؟ ولماذا صار واديك الفياض بالماء والعطر، والنسمات البليلة يفيض بالمخلفات، والنفايات، والأشواك والزفت المتهتك، والمسخ والتشويه..؟

قريتي بَعُدَ الزمان بيني وبينك، وبينك وبين نفسك.. لم يبق منك إلا نخل شائخ يبكي على ماضيه، وأرض أجدبت إلا من شجيرات غريبة ليس لها رائحة ولا لون وإنما أشواك سامة..

كنت إذا غنت السيدة «هلت ليالي القمر» يتأرجح واديك طرباً، ويهتز ويرقص، ويكاد يخرج من طوره نشوة من ذلك الغناء الهامي مع ضوء القمر.. فما الذي حدث..؟ ولماذا تغيرت الدنيا على عجل..؟ أهي الظروف..؟ وهل الظروف جزء من عمر المكان..؟ وهل للمكان عمر الكائن الحي: طفولة، وشباب ثم هرم..؟

إن كان الأمر كذلك فقد شخت والله قبل شيخوختك.. كما شاخ ذلك الفتى المستهام فيك قبل أوان الشيخوخة، وظل في مكانه وحيداً يعاقر الغربة، والوحدة، والحزن والليل الطويل.. يكابد عذابات الراحلين، وأشواق، وذكريات الأحبة والأصدقاء، والأُلاّف.. فظل متشبثاً بك ملتصقاً بترابك، تهيم روحه في آفاقك محلقة في حقول شبابه، وبساتين عمره، ثم تؤوب إليه منهكة بالحسرة، وخيبة الحلم... ولكنه يظل يسير متعثر الخطى في دروبك تماماً كصاحب أعمى اليمن «البَردّوني» الذي قال فيه:

وحَـدَه يَحـملُ الشّـقـا والسِّنينا

لا مُـعـيـنٌ وأين يلقـى المُعِـينَا

وحَدَه في الطّريق يَسحبُ رجليـه وَيطوي خَلفَ الجِراحِ الأنِينَا

مُـتـعبٌ يَعـبُـرُ الطريقَ وَيمْضي

وَحـدَه يَتْـبـعُ الخَـيَـال الحَـزِينَا

سلام عليك ياقريتي التي كنت فمادت بك الأيام.. ولكنك بقيت في الذاكرة صورة لا تشيخ.

الْفِيل

حينما رأيت الفيل أول مرة في حديقة الحيوان أصبت برعب وخوف ممزوجين بالعجب والاستغراب؛ لأنني لم أكن أتصور أن مخلوقاً يمشي على وجه الأرض بهذه الضخامة والكبر.

وكنت أظن أن أكبر مخلوق على البسيطة هو أستاذنا «يحيى»، فقد كان رجلاً طويلاً ضخماً، وعملاقاً، إذا دخل من الباب انحنى بنصف جسده وكأنه يدخل من نافذة، علماً بأن باب فصلنا من الأبواب الكبيرة لبيت عتيق يبدو أنه قد بُني قبل دخول إبراهيم باشا للدرعية.. وأصدقكم القول إنني كلما رأيت - حتى اليوم - صورة أو مجسماً لديناصور تذكرت ذلك الرجل العملاق أستاذنا «يحيى».. كان إذا دخل علينا نهضنا كفراخ العصافير أمام نسر جبار.. فإذا أشار بيده جلسنا في صمت محدقين فيه وهو يكتب الدرس على السبورة، وكم كنا نجد عناءً بالغاً لنسخ ما يكتب؛ لأنه يسد ببدنه الضخم معظم السبورة، فإذا أتم الكتابة جلس على كرسي الخيزران الذي يبدأ في الأنين والشكوى والتضجر بما يصدره من صرصرة وأزيز وأصوات متباينة، فإذا جلس بدأ يشرح

الدرس مستعيناً بخيزرانة طويلة يحدد بها الكلمات والأسطر.. والحق أنه بالرغم من خيزرانته إلا أنه لا يستعملها للضرب مطلقاً، وكان يكتفي بتركيز نظرة من عينيه تجعل التلميذ يدخل حالة دوار خوفاً ورهبة..

وكان الخوف والرهبة بجعلاننا نحفظ ما يكتب عن ظهر قلب فيتحول طلبة الفصل في حالة التسميع إلى ببغاوات تتراطن بكلام تردده ولا تفهمه.. فإذا سمعنا صوت الصافرة تنفسنا الصعداء وبدأنا نستنشق الهواء بشكل طبيعي..

وهكذا كنا مع هذا الأستاذ البدين، الغريب، الذي يتحجر في حضرته كل شيء حتى الزمن إلا قلوبنا الواجفة، وأجسادنا التي تركبها قشعريرة الخوف والهلع..

كان أستاذنا يسكن في بيت مع أستاذ آخر في المدرسة، وكنا نراهما دائماً يسيران في الأسواق وفي الوادي بعد صلاة العصر، فإذا أقبلا هربنا ولذنا بأية زاوية، أو وراء أية شجرة، حتى إذا تواريا عدنا إلى ما كنا فيه..

ولسبب مجهول حتى اليوم اختلف الأستاذان فيما بينهما فقرر زميله ترك البيت والانتقال إلى مكان آخر.. وحاول الأستاذ الضخم ثنيه عن رأيه وبذل كل الحيل والمغريات ولكنه فشل وهنا حلت الكارثة بالأستاذ الجبار..

كان أستاذنا الفخم، الضخم، الذي يخاف الليل منه وتخاف منه كل الكائنات مصاباً فيما يبدو «بفوبيا» الخوف من الوحدة.. فهو لا يستطيع أن يجلس أو أن ينام في البيت وحده.. وعندما أقبل الليل خرج الأستاذ إلى الشوارع يدور ويبحث عن مخرج لخوفه وهلعه، وأخيراً ذهب إلى بيت فرَّاش المدرسة وطلب إليه أن ينام عنده في البيت لأنه لا يستطيع النوم وحيداً، وذهل الفراش ولم يصدق أن هذا الداهية في بدنه له قلب أذل وأشد ذعراً من قلب عصفور.. وما إن طلعت الشمس على المدرسة حتى انتشر الخبر بين الأساتذة والطلاب، ولم يصدقوا النبأ في بداية الأمر، ولكن كثرة ضحك المدرسين وغمزاتهم، كشفت وأكدت كل شيء، وما أسرع ما تجرأ التلاميذ الصغار فأخذوا يتهامسون بينهم بخبث إذا أقبل.. وأحياناً يخرجون رؤوسهم من النوافذ وهم يتغامزون ويتضاحكون وربما يصفرون إذا مر ذلك الأستاذ الجبار..

وما أسرع ما تحول فصلنا فصل البغاوات إلى فصل للشياطين والمردة، فتعالت الصيحات وكثر اللعب وأصبحنا كالعصافير في السدرة، كما يقال.. ولم نعد نحفظ، ولم نعد نكترث، وصرنا نخرج أحياناً من الدرس بلا إذن.. الشيء الوحيد الذي ظل تحت سيطرة الأستاذ هو ذلك الكرسي الذي يملأ المكان بالشكوى.. والأنين، والأزيز، والصرصرة..!!

البـــــارّ

هناك حكاية أسطورية ترويها بعض الروايات الشعبية، بعضهم يرى أنها وقعت فعلاً، وبعضهم الآخر يرى أن الخيال تدخل في كثير من أحداثها، والحكاية تقول: إنه في بيت بمزرعة بإحدى القرى المجاورة للرياض كان هناك ثلاثة حمقى: أب، وأم، وابن... وكان الابن أشدهم حمقاً، وعصبية، وهوجاً، وعنفاً.. رباه والده على العمل بجد، فنشأ صلباً قوياً متيناً لا يستكين لأمر جلل، ولا يرضخ لصعب مهما كان شديداً ومتعباً، إلا أنه كما قلت يتمتع بعقلية طفل مشاغب.. أي أن قوته في جسده وليست في ذهنه وعقله.. أرسله والده ذات يوم في مهمة، وقبل أن تشرق الشمس كان قد هب لها.. وعاد قبل غروب الشمس مجهداً متعباً بعد يوم شاق مضن طويل.. عاد بعد أن أنجز المهمة، وكانت نفسه تتوق للأكل ثم النوم.. فأجمل وأروع ما يحلم به هو الأكل اللذيذ والنوم الطويل بعده.

دخل البيت فوجد أمه في منظر لا يسر، وجدها تبكي وقد عصبت رأسها إثر شجة أصابته، ورأى الدم وهو ينزّ من العصابة فارتاع لذلك، وأخذته رعدة ووجل، وسأل والدته عن السبب، فقالت:

أبوك..! أبوك ياعيسى.. أبوك هو الذي فعل بي ما ترى. وراحت تندب وتبكي وتردد: لقد صبرت على الكدّ، والنكدّ، والفقر، والشقاء، أعمل قبل أن تطير الطيور من أعشاشها، وأظل أشقى، وأركض طيلة يومي مع أبيك النكد الغضوب، القاسي، صابرة على أذاه وسخطه الدائم، ومعاتباته التي لا تنتهي.. ثم بعد هذا العمر كله يفعل بي ما ترى.

آه ياعيسى أنا أمك، حلوة اللبن، انظر ماذا فعل أيضاً بيدي.. وتفسر عن سواعدها فيرى جراحات وكدمات ورضوضاً.. فيقول: أفعل الملعون بك هذا كله..؟

وثب من فوره وفي يده عصا غليظة، وذهب إلى والده وهو وراء حمير اللسانة وقد أجهده التعب، والسغب، والبرد الشديد.. فوثب عليه وقال: لماذا تجلد أمي يا ابن الكلب..؟ وأخذ يضربه في كل مكان من جسده.. ضربه بعصاه ضرباً عنيفاً حتى سقط مغشياً عليه.. ولما رأى والده في هذه الحالة ندم ورثى لأبيه وأخذ يرش الماء على وجهه، فلما صحا بكى الأب وقال: أتفعل بي كذا ياعيسى.. أنا.. أبوك.. أفنيت شبابي، وأكلت لحم عضودي من أجل أن أربيك، وأنميك، وأوصلك وأبلغك مبلغ الرجال، وراح الأب يمسح دموعه وينفض الغبار عن ثيابه بعد وجبة الجلد العنيفة.

سقط عيسى على رأس أبيه وأخذ يقبله ويبكي، ويعتذر، ويطلب الصفح والعفو.. لكن الأب ظل يبكي ويرتعد بين يديه ويقول:

أتضرب أباك من أجل أمك.. فلم يتركه عيسى يكمل الكلمة بل وثب سريعاً والعصا في يده ودخل على أمه فأشبعها جلداً ورفساً وهو يقول: آه يا ابنة الكلب جعلتني أضرب والدي الحزين المسكين.. وظلت تستغيث ولكن لا مغيث حتى أشبعها جلداً ومسطاً..

وفي الليل وضع الأب عن يمينه، والأم عن شماله، وأخذ يضمد جراحاتهما.

وانتشرت الحكاية في القرية، وامتدت إلى القرى المجاورة وأطلقوا على عيسى اسم «البار» من باب السخرية، والاستهزاء، وأصبحت الحكاية مثلاً يطلقونه على كل عاق أحمق لا يحسن عواقب الأمور.

كِفَاحْ

كانت ليلة من ليالي الشتاء الباردة وقد ظهر البدر في كبد السماء، فأشرق على البساتين الغافية في برودة ونعاس.. وكان الطريق صامتاً هادئاً إلا من صياح ثعلب يأتي من بعيد من الجبل خلف بساتين النخيل.. وكنت خارجاً من بيت صديقي في المدرسة حيث الليلة ليلة جمعة، وقد أنسنا بالأحاديث وحرارة النار المتقدة بحطب السمر..

سرت في الطريق وفي رأسي تدور أحاديث كثيرة لم أتمكن من أن أسردها على صديقي.. حول المدرسة، والأساتذة، ولعبة كرة القدم، وغرفة الرسم.. وعند منعطف الطريق المحاذي للمسجد كان يقبع بيت «أبو إبراهيم». بيت متواضع متطامن الحيطان، ظهر بين البيوت الأخرى مزرياً ببابه الخشبي القديم ونافذته الخشبية المستطيلة التي ينبعث منها ضوء شاحب ضئيل.. وحينما حاذيت النافذة ترامى إلى سمعي صوت يأتي من غرفة الجلوس: أنا فلاَّح قدير.. ثم يتابع طفل: أنا فلاح قدير.. أنا فلاح قدير.. أنا فلاح قدير أزرع الحب الكثير.

وشدني الفضول فدنوت من النافذة ومن الخصّ الذي ينبثق منه الضوء رأيت إبراهيم منكباً على كتاب وبجانبه الأخ الصغير منبطحاً على بطنه يحدق في الكتاب المدرسي. إبراهيم يردد.. والصغير يتابع. الأب والأم يتابعون في هدوء واستمتاع، والأخت الكبرى توزع فناجين الحليب بالزنجبيل فيصعد بخارها في الفضاء الشاحب مختلطاً برائحة الحطب.

كانت أنفاس الليل هادئة وكان ضوء القمر يشع في حيطان البيوت المقابلة.. ولا شيء يحرك سكون الليل إلا صوت إبراهيم وصوت الصغير وهو يتابعه في ضعف وكسل..

وانسللت من مكاني، وراح الصوت الضعيف يتبعني: أنا فلاح قدير.. أنا فلاح.. أنا ف.. أ.

ثم أخذ يتلاشى في سكون الليل.. ولكن الصوت أخذ يدوي في أذني ويكبر.. يكبر.. وتكبر صورة «أبو إبراهيم» العامل البسيط.. الفقير الذي قضى حياته في القرية، يعمل في البناء، ونقل الأخشاب، وشذب جريد النخيل، يأخذ أجره الضئيل من هذا، ومن ذاك ليعول هذه الأسرة البسيطة اللطيفة، وراح يزرع بماء عرقه وكفاحه في هذا البيت الضئيل بواكير العلم والمعرفة.. وظللت حيناً من الدهر أمر على البيت الضئيل فيخيل إلى أنه قصر.. ففيه من الدفء والطموح ما يجعله أكبر من ذلك..

وظللت ألاقي «أبو إبراهيم» في الشارع وطرقات القرية وهو يحمل حزمة العلف فوق رأسه، أو هو يضع مسحاته على كتفه فأشعر بهيبة وجلال لهذا الرجل الذي يجمع بين البساطة والعظمة.

ومرت الأيام وفرقت القرية أهلها..

وقبل فترة مررت بالبيت فرأيته كما هو بل زاد ضآلة وشحوباً.. وخدشت الأمطار، والإهمال واجهته، إلا أن الباب لا يزال كما هو، والنافذة لا تزال كما هي، وتذكرت العائلة ورحت أسأل عنها بإلحاح وشغف.. فقيل لي: إن إبراهيم صار طبيباً، وإن الطفل الصغير - محمداً - أستاذ في الجامعة، أما الأخت فأصبحت مديرة مدرسة. فامتلأ صدري بمزيج من الفرح والإجلال لذلك الأب المكافح العظيم.. وراح ذلك الصوت الضئيل في تلك الليلة الشتائية المظلمة يتردد على سمعي: أنا فلاح قدير.. أزرع الحب الكثير.. أزرع الجد الكثير.. أزرع الأمل الكبير.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
كَشـفْ	١٣
الدّيمُخرَاطيَّة	١٧
وجُوه مِنْ الزّمن الجَمِيل	٢٣
أَبو نُيـوتِنْ	٢٧
ذُو الحِمارَين	٣١
دَجَاجات أُمّ سَالم	٣٥
أبولّو ٧٧	٣٩
مُخـاوِزْ	٤٣
المُثقَّف	٤٧
البَيْطَـار	٥٣
النّجَـاح	٥٧
بُندقيّـة أَبِـي	٦١
البَطَـل	٦٥
غَـدْر	٦٧

الموضوع	الصفحة
الْغَـيث	٧١
الصَّليب	٧٥
زَوَاج	٧٩
مِنكْ شـدّه	٨٣
الأُضحِيـة	٨٧
غَطِيـطْ	٩١
الأُستَاذ	٩٥
مَرثيّة قَريـة	٩٧
الْفِيـل	١٠١
البَّـار	١٠٥
كِفَـاحْ	١٠٩

للمؤلف

١ أشباح السراب ..... (مجموعة قصصية)

٢ حصار الثلج ..... (مجموعة قصصية)

٣ سيرة نعل ..... (مجموعة قصصية)

٤ الشجرة ..... (مجموعة قصصية)

٥ بالفصيح ..... في السياسة والثقافة

تحت الطبع

١ أمريكا العقلية المسلحة

٢ أنابيش ثقافية في النقد والأدب

٣ ذو الرمة .. الشاعر السينمائي ..... أدب

٤ الرحيل ..... (مجموعة قصصية)

٥ أودية الشعر ..... عن الأودية والأمكنة الشعرية

٦ العرق الأخضر ..... رواية

٧ العوجا ..... رواية

الدراسات

١ الإنسانية في الشعر الجاهلي

٢ العرب حضارة شعرية

٣ صعاليك جدد

٤ خطر الشعر العامي

٥ أبانات ... نصوص